أجاثا كريستي

الأربعة الكبار

The Big Four

1927 م

تأليف

أجاثا كريستى

دار الخلود
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: الأربعة الكبار
تأليف: أجاثا كريستي
الناشر: دار الخلود للنشر والتوزيع
رقم الإيداع: 2014 / 2769
الترقيم الدولي: 5 - 020 - 758 - 977 - 978
الإشراف العام: وائل سمير

دار الخلود
للنشر والتوزيع

٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
محمول: ٠١٢٨١٦٠٧١٨٥ محمول: ٠٠٢٠١٠٦٣٥٣٩٩٠٩
فاكس: ٢٥٠٦٩٥٨٢
E-Mail: DAR_AlKHOLOUD@YAHOO.COM

الفصل الأول

كم أدهشتنى رؤية أولئك القوم على مقاعدهم الخشبية يعبرون القنال هادئين، فإذا وصلوا انتظروا حتى ترسو السفينة ثم قاموا إلى متاعهم يجمعونها دون ضجيج.

أما أنا فلا أبقى هادئا ولوحيّنا من الوقت، فإذا صعدت لسطح السفينة أرانى قد بدأت أقلق واضطرب، ويحل فى شعورى أن الوقت قصير جداً لا يكفى للراحه والقعود فأنطلق اجمع حقائبى وأحركها من مكان للآخر، وإذا نزلت إلى الصالة لكى آكل طعامى فإننى أزدرده بسرعة وربكة مخافة أن تصل السفينة فجأة وأنا ما أزال فى الأسفل.

ربما كان هذا مما أورثتنيه الحرب، فقد كنت حين آخذ إجازة قصيرة أجعل اهتمامى أن استئثار نفسى بموقع قريب من المخرج لكيلا أهدر بضع دقائق ثمينة من إجازتى القصيرة ذات الأيام الثلاثة أوالخمسة.

فى صباح ذلك اليوم من تموز كنت اقف جنب الحافة أراقب المنحدرات الصخرية البيضاء في دوفر وهى تقترب رويداً رويداً. لقد أثارنى مشهد المسافرين يجلسون على مقاعدهم بكل هدوء ولم تتحرك مشاعرهم ولا رفعوا عيونهم ليروا منظر وطنهم الأول، ربما اختلفت حالهم عن حالى قليلاً، فأكثرهم بلا شك جاء من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى باريس، في حين أقيم أنا بعيدا فى مزرعة كبيرة فى الأرجنتين منذ سنة ونصف السنة، حيث حققت نجاحاً كبيراً، واستمتعت مع زوجتى بحياة حرة بسيطة فى أمريكا الجنوبية.

وراقبت ذلك الشاطئ المألوف يدنورويدا رويداً بشعور من القلق والشوق، أنه أثار فى نفسى ذكريات وذكريات قد نزلت فى فرنسا قبل يومين من أجل بعض الأعمال الضرورية،.وها انا ذا فى الطريق إلى لندن، والواجب أن امكث فيها بضعة أشهر، حيث الوقت يتسع أن أزور أصدقائى الأقدمين لاسيما صاحبى الضئيل الحجم ذا الرأس البيضاوى والعينين الخضراوين: هيركيول بوارو.

وعزمت أن أفاجئه بزيارتى هذه مفاجأة مقصودة وإن كانت رسالتى الأخيرة التى بعثتها إليه من الأرجنتين تلمّح إلى رحلتى التى اتخذت القرار بشأنها على عجل بعد مواجهتى لبعض المصاعب فى العمل.

.. ترى ماذا يصنع بواروحين يراني؟

أيقنت انه غير بعيد كأن يكون في مقر عمله؛ لأن الوقت الذي كانت قضاياه تضطره للسفر من شمال انجلترا إلى جنوبها قد انقضي، ولم يعد يرضى أن تأكل قضية واحدة كل وقته، فقد ذاع صيته واشتهر، واستطاع حصول أهداف كثيرة، وحقق كثيراً من طموحه، ثم إن الوقت يهيئه ليصبح «مستشارا في التحري والتحقيق»تماماً مثل الطبيب المختص الشهير في شارع هارلي!

كان بواروبسخر دائماً من الفكرة الشائعة عن كلب «الدموم» الإنساني الذي يتعقب المجرمين ويقف عند كل اثر قدم، وسوف يقول «لا يا صديقي هيستفيز، ذلك من فعل جيرود وأصحابه، أما أسلوب هيركيول بواروفهوخاص به: التنظيم والمنهجة و«الخلايا الرمادية» إذا جلسنا نحن على مقعدنا نستريح نستطيع أن نرى أمورا غفل عنها أخرون، ونحن لا نقفز إلى النتيجة قفزاً كما يصنع «جاب» «الكفء».

كان لدي خوف أن يكون بواروسمافراً لكني كنت اطرد هذه الوساوس المقلقة، وحين وصلت لندن أودعت متاعي في فندق وانطلقت بالسيارة مسرعا إلى العنوان القديم...

أى ذكريات ممتعة أثارها هذا المكان فى نفسي!

وانتظرت بشيء من القلق كى أزجي التحية لصاحبة البيت الذي كنت اسكنه، ثم انطلقت اصعد الدرج درجتين درجتين، وطرقت باب بوارو فإذا

بصوته المعهود يهتف:

ادخل...

ودخلت فإذا بوارو أمامي وجهاً لوجه، وما أن رآني حتى سقطت من يده حقيبة سفر وارتطمت بالأرض لشدة المفاجأة، وصاح:

هيستنجز! هيستنجز !

اقبل على وعانقني عناقا حار، ودار كلامنا غير مترابط ولا مقبول: هتاف وأسئلة لاهفة وأجوبة متبورة وكلام عن رحلتى ورسائل، كله اختلط اختلاطا عجيبا! وسألته أخيراً حين هدأنا من ثورة الشوق قليلاً :

- أرى أن في غرفتي القديمة شخصاً ما، وأحب أن أقعد معك هنا مرة أخرى.

تغير وجه بوارومن هول المفاجأة:

- يا إلهى! أية فرصة سيئة التوقيت هذه.. انظر حولك يا صديقي..

لأول مرة لاحظت الأشياء التى حولي: صندوق ضخم على الطراز القديم ناحية الحائط، وإلى جواره عدة حقائب مصفوفة كل حسب حجمها، وقد أعدت للسفر حتما لا خطأ فى ذلك..

- هل أنت راحل؟

- أجل..

- أين؟

- إلى أمريكا الجنوبية..

صحت بانفعال:

- نعم تلك مهزلة مضحكة، أليست كذلك؟ أني مسافر إلى «ريو» في البرازيل، وكنت في كل يوم أقول: لن أكتب شيئاً في رسائلى حتى تكون مفاجأة لصديقي الطبيب هيستنجز حين يراني..

- ومتى ستذهب

نظر بواروإلى ساعته:

- في غضون ساعة واحدة.

- أتتذكر أنك تقول: «ليس هنا ما يقنعني بإنجاز رحلة بحرية طويلة»؟

ارتجف بواروقد اغمض عينيه وقال:

- لا تحدثني في ذلك، طبيبي ياصديقي يؤكد لى أن الإنسان لن يموت من رحلة كهذه، أنت تعمل إننى لن ارتحل مرة أخرى أبدا.. وجذبني نحوالمقعد وأردف: سوف تعلم كل ما حدِث أتدرى من هوأغنى رجل في العالم؟ روكفلر؟ هذا أغنى من روكفلر إنه آبي ريلاند..

- ملك الصابون الأمريكى؟

- أجل لقد اتصلت بي إحدى سكرتيراته وقالت إن عصابة تمهد لعمل احتيال ضخم يرتبط بشركة كبيرة في ريو، وهو يرجوني أن أحقق المسألة فى مساحتها فرفضت وقلت: إذا كانت الحقائق بين يدي فسوف اقطع عندئذ برأى خبير مستشار، لكنه رد علي بأنه لا يستطيع تقد يم الحقائق، وأن عليّ أن أسعى بنفسي لكشفها حين أصل عنده، وقد كان هذا يكفي أن يلغى الصفقة من البداية، لأن من الوقاحة الصرفة أن يملى على هيركيول بواروما ينبغي فعله، لكن الأجر الذى عرضه على كان مذهلا جدا.. لأول مرة أشعر أن المال يغريني!

لقد كان الأجر ثروة طائلة، ولا تنس أن عندى إغراء آخر غيره أنت يا صديقى قد كنت عجوزا وحيدا في عام ونصف العام هي غيبتك، ثم أنني تحققت لي شهرة تامة، ففكرت فى نفسي: لماذا لا آخذ تلك المكافأة وأبحث عن القرار في مكان ما وعندى صديقي القديم؟

تأثرت كثيرا من نظرات بواروإلى وتابع كلامه:

- من أجل ذلك قبلت، وفى ساعة من الزمن يجب أن أغادر المكان لألحق القطار الذى يقلني حيث السفينة تلك إحدى عجائب الزمن، أليس كذلك؟ لكننى اعترف إليك بأننى ربما كنت ترددت لولم يكن الأجر كبيراً جداً، حيث إننى بدأت أخيرا في إنجاز تحقيقات غاية في الخطورة والإثارة.. قل لي: ما الذي يقصد عادة بعبارة «الأر بعة الكبار»؟

- أظن أن هذا المصطلح جاء أصلا في مؤتمر فرساي، ثم تعرف الأربعة

الكبار المشهودين في عالم السينما، وهذا الاصطلاح يقال أيضا في بعض الحفلات والأعياد.

- حسناً، لقد سمعت هذه العبارة يوماً ما لكن تفسيراً مما ذكرت لا ينطبق عليها، يبدوأنها تعني عصابة دولية من المجرمين أوشيئاً يتعلق بهذا التصنيف فقط..

سألته عندها دون تردد:

- فقط؟ ماذا؟

- أتخيل أن ذلك الشيء قوي وضخم، تلك فكرة صغيرة لدى فحسب، هيا.. يجب أن أكمل حزم الأمتعة، فالوقت يقترب.

فقلت أرجوه:

- لا تذهب إلغ التذكرة وتعال معي على متن سفينتي نفسها التي سأغادر عليها بعد شهرين.

- أشاح بواروبوجهه عني بعد أن رمقني بنظرة قاسية فيها تأنيب وقال:

- كأنك لم تفهمني تماما، لقد قلت كلمة. ألا تدرك هيركيول بوارو؟ لا شيء ينبغي أن يعيقني الآن إلا الموت.

همست حزينا:

- وهذا ما لا أتوقعه، وأرجوألا يختم الأمر بشيء طارئ في اللحظة الأخير.

وما لبثنا كلانا بعد برهة صمت قصيرة أن سمعنا صوت حركة مريبة في الغرفة الأخرى، فصحت:

- ما هذا الصوت؟

رد بواروسريعاً:

- يا إلهي كأنك قلت ما تعلم «شيء طارئ في اللحظة الأخيرة»: شخص غريب في غرفة نومي.

- كيف دخل إليها؟ ليس لتلك الغرفة باب إلا الباب الذي يوصل إلى هنا!

- ما أقوى ذاكرتك يا هيستنجز هيا إلى الاستنباط..

- إنه الشباك.. إذن فهولص؟ لابد أنه تسلق إليه بصعوبة بالغة، لكن هذا أشبه بالمستحيل.

واتجهت صوب الباب حذراً أستطلع، غير أن حركة مقبض الباب من الداخل أوقفتني ذهلاً.. فتح الباب قليلاً قليلاً وبان رجل يكاد يملأ المدخل والوحل يغطي بدنه من رأسه حتى أخمص قدميه. وجهه كان شاحبا وعليه علامات الإرهاق والإعياء.

حدق إلينا ثم ترنح وسقط، فهتف بوارو:

- الليمون بسرعة.

وجلبت كأس الليمون واجتهد بواروأن يسكب في فمه شيئاً قليلاً منه، ثم حملناه إلى الأريكة، وما لبث أن فتح عينيه بعد دقائق ونظر نظرة ذاهلة لا تبدى شيئاً سأله بوارو:

- ماذا تريد يا سيد؟

فتح الرجل فمه. ثم نطق بصوت غريب كلمات:

- السيد هير.. كيول.. بوارو، ١٤ - شارع فاراوي؟..

- نعم نعم.. أنا هو..

يبدوأن الرجل لم يفهم شيئا، وأعاد عباراته الأولى باللهجة ذاتها:

- السيد هيركيول.. بوارو، ١٤ - شارع فاراوي..

حاول بواروأن يختبره بأسئلة مختلفة لكن الرجل لم يكن يجيب عن الأسئلة، وحينا كان يردد كلمته السابقة، أشار إليه بوارو أن يتصل بالهاتف:

- أطلب الدكتور ريدجوي كي يحضر فوراً.

لم تمض بضع دقائق حتى كان الطبيب يدخل مسرعاً، فبيته كان في زاوية الشارع:

- ماهذا كله؟

سرد له بوارموموجزاً وبدأ الطبيب يفحص زائرنا الغريب الذى كان في غيبوبة لا يدرك ما يجرى حوله، قال د. ريدجوي حين أنتهى:

- آه حالة تثير التساؤل..

همست: حمى دماغية؟

صاح الطبيب منكراً:

حمى دماغية! لا شيء عندنا اسمه حمى دماغية، ذلك كلام الروائيين فقط لا، إن الرجل أصابته صدمة ما، ثم جاء إلى هنا وقد سيطرت عليه فكرة ملحة ليجد السيد بوارو.

قلت بلهفة:

- إذن فهواحتباس الصوت بسبب إصابة لحقت بالدماغ؟

لم يثر هذا السؤال الطبيب كما فعل سؤالي الأول. لكنه لم يجب بل دفع للرجل قلما وورقة:

- دعونا نرى ماذا سيفعل.

لم يفعل شيئاً لبضع لحظات، ثم بدأ يكتب فجأة وبصورة محمومة، ثم كف وترك الورقة والقلم يسقطان من يده فالتقطهما الطبيب ونظر فيها وهز رأسه:

- لا شيء هنا، رقم «٤» فقط بصورة غير واضحة، اثنتي عشرة مرة، وفي كل مرة يكون الرقم أكبر من الآخر، يريد - على ما يبدو- أن يكتب ١٤ - شارع فاراوي.. إنها حالة مثيرة للاهتمام.

لكن هل - يا ترى - تسمحان أن يبقى هنا إلى ما بعد الظهر؟ أنا مضطر الآن أذهب إلى المستشفى، وسوف أعود بعد الظهر لأصنع ما ينبغي بشأنه، هذه قضية تستحق الاهتمام وأود كشف سرها.

وحدثته بأمر سفر بوارووغبتي مرافقته إلى ساوت هامبتون فقال:

- حسنا دعا الرجل هنا، إنه لن يتسبب بأذى فهويعاني من إعياء ثقيل، وربما ينام ثماني ساعات متواصلة، سأكلم جارتكم الطيبة السيدة فنفيس وأسألها أن تعتني به.

وخرج الدكتور ريدجوي مسرعا بخفته المعهودة وأتم بواروحزم أمتعته وعينه تلحظ الساعة:

- الوقت يمضي سريعا، تعال إلى هنا يا هيستنجز، لن أدعك تقول بأننى تركتك دون عمل، إنها مشكلة غريبة حقا.. هذا الرجل الغريب من هو؟ ومن أين جاء؟ آه! وددت لوأضحى بسنتين من عمرى من أجل أن تتأخر السفينة يوماً واحداً، إلى

الغد بدلاً من اليوم، ثمة شيء يثير السؤال ويدعوإلى الاهتمام لكن الوقت ثمين.. الوقت.. ربما تقضي أياماً بل أشهراً قبل أن يصبح الرجل قادرا على تسمية حاجته.

- سأبذل جهدى يا بواروسوف أكون بديلا كفئا عنك.

- نعـــ.. نعم.

دهشت لرده الذى بعث فى نفسي شكوكاً، أخذت الورقة وقلت مرحاً:

- لوكنت كاتبا لحبكت قصة من هذه الورقة وكلمتك التى قلتها سابقاً وأسميتها «لغز الأربعة الكبار» وكنت أضرب على الأرقام المكتوبة وأنا أتكلم..

أصابتني رعشة حين نهض مريضاً فجأة من غيبوبته وجلس وقال بصوت واضح:

- لي شانج ين.

في حين أوحى شكله أنه نائم وصحا من نومه فجأة.

تهاني بواروأن أكلمه، استمر الرجل يتكلم بصوت واضح جمهورى وكأنه يلقي درساً أويقرأ بياناً مكتوباً.

- لي شانج ين زعيم العقول الأربعة الكبار، إنه القوة الضابطة والآمرة، ولذلك فقد سميته رقم «١» أما رقم «٢» فنذكره باسمه قليلاً، ولذلك رمزه «$» علامة الدولار، ورمزه أيضا شريطان ونجمه، فيحق لنا أن نجلس أنه أمريكى، وهذا يمثل قوة الثروة، ثم يبدوأن رقم «٣» هوامرأة بلا شك، وهي فرنسية وربما تكون واحدة من نصف العالم الجديد، ربما لا أجزم بهذا ورقم «٤»...

بح صوته وتعلثم لسانه وكف عن الحديث فاقترب منه بواروبحثه على الكلام:

- نعم، رقم «٤».

كانت عيناه مثبتتين على وجه الرجل الذي ساده الرعب وقال الرجل يلهث:

- المدمر!

تشنج فزعاً وسقط مرة أخرى وغاب عن الوعي، همس بوارو:

- يا إلهى لقد كنت أذن على صواب، كنت على صواب...

حاولت أن أتكلم:

- تظن...؟

- هيا احمله معى إلى السرير، لا أملك أن أضيّع دقيقة واحدة وإلا فإتنى القطار.. آه! ليتني لم أقل كلمتي لكن - حينئذ - نقض السفر بضمير مرتاح لكن الوعد حق، هيا يا هيستنجز .

أودعنا هذا الزائر الغريب برعاية السيدة بيرسون وانطلقنا مسرعين في السيارة فأدركنا القطار.

وبينما كان القطار يشق طريقه إلى ساوث هامبتون أخذ بواروينظر عبر النافذة كأنه فى حلم: يصمت حيناً وينطق حيناً آخر إلا أنه على كل حال لم يسمع كلمة واحدة من حديثي له.

وكان حيناً يصحو فجأة فيلقي على كومة نصائحه وإرشاداته ويرجوني أن أدوام مراسلته وإبراقه دوماً.

وقطع القطار مسافة طويلة نحوساوث هامبتونن دون توقف على الطريق، وبعد أن اجتاز مقاطعة ووكنج حل بيننا صمت طويل حتى توقف القطار فجأة عند إشارة ضوئية فاهتاج بواروفجأة وصرخ:

- يا إلهي! هذا رائع! قد كنت إبله، الآن فهمت، العناية الإلهية أوقفت القطار بلا شك، اقفز يا هيستنجز قلت لك: اقفز!

وبسرعة خاطفة فتح باب العربة وقفز من القطار على السكة الأخرى وصرخ يحزم:

- هات الحقائب واقفز، هيا بسرعة.

لم أملك إلا طاعة بوارودون تفكير، فقفزت! وما أن وطئت قدماي الرصيف حتى كان القطار ينطلق كالبرق، وقلت له بنبرة ساخرة:

- والآن يا بواروهلا فهمتني كل هذه الحركات التي لم أفهم منها أى شيء؟

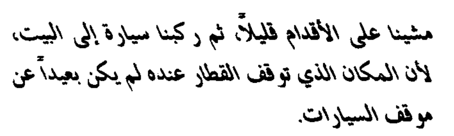
- يا صديقي قد رأيت الضوء.

فقلت أنا لما يقول منكر:

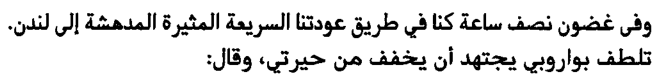
- هذا واضح جدا عندى.

- يجب أن يكون واضحا، لكنى أخشى أن الأمر ليس تماما كما قلت، على كل حال فلوحملت حقيبتين من هذه أتدبر أنا البقية.

الفصل الثاني



مشينا على الأقدام قليلاً، ثم ركبنا سيارة إلى البيت، لأن المكان الذي توقف القطار عنده لم يكن بعيداً عن موقف السيارات.



وفي غضون نصف ساعة كنا في طريق عودتنا السريعة المثيرة المدهشة إلى لندن. تلطف بواروبي يجتهد أن يخفف من حيرتي، وقال:

- الا ترى يا صديقي؟ لم أكن أرى من قبل ما تبين لي، إنها مؤامرة ذكية قد أحكمت خيوطها من أجل دفعي لأخرج من طريقهم!

- ماذا؟

- أجل بخطة ذكية متقنة اختاروا المكان المناسب والأسلوب بعناية فائقة وفطنة لم تسبق، إنهم يخافونني.

- من هم؟

- عصابة الشياطين الأربعة الذين صنعوا اتحادا شريراً يعمل في غفلة من القانون: رجل من الصين وثرى أمريكى وامرأة فرنسية ورابعهم معهم.. ادع الله أن نصل إلى البيت سريعاً يا هيستنجز .

- هل تظن أن زائرنا في خطر؟

- إني جازم بذلك!

حيتنا السيدة بيرسون حين وصلنا وهي تنظر إلينا بدهشة واستغراب سألناها عن الضيف دون اكتراث بدهشتها فأجابت بأن حالته حسنة وصحته تدعوإلى الطمأنينة.

صعدنا إلى البيت وعلينا بعض علائم الراحة، عبر بواروالغرفة الأولى متجها

إلى الاخرى، ثم ناداني بصوت متهدج غريب ينطق بالفزع:

- هيستنجز أنه ميت!

ركضت إليه وصدرى يهتز من هول المفاجأة، الرجل مازال مستلقيا كما تركناه وكان ميتاً منذ بعض الوقت!

خرجت مسرعاً فى طلب الطبيب، وكنت أعلم أن الدكتور ريدجوى ليس في عيادته، فدعوت طبيبا غيره قريباً حضر معى في الحال..

- إنه ميت تماما، هل هوصديق لك؟

.. - أجل، لكن ما سبب وفاته؟

- يصعب تحديده ربما يكون نوبة مرضية، وفيه بعض علائم الاختناق، هل عندكم خط عاز ممتد إلى هنا؟

- كلا بل ضوء كهرباء ليس غير.

- والشباكان مفتوحان تماما أيضاً، كأنه مات منذ ساعتين، انتم ستخبرون الشرطة أليس كذلك؟

وخرج الطبيب وقام بواروبالاتصال اللازم، ثم اتصل بصديقنا القديم المفتش جاب وسأله الحضور ولم يمض وقت طويل حتى حضرت السيدة بيرسون وعيناها حاحظتان من الدهشة والعجب، قالت:

- بالباب رجل من المصلحة العقلية، هل أجعله يدخل؟

أشار لها بالموافقة، ودخل رجل ضخم الجسم في زي خاص، قال بمرح:

- صباح الخير يا سادة، لقد علمت أن عصفورا من عندى طار عندكم، لقد فر ليلة أمس..

بوارو: قد كان هنا.

- وهرب مرة أخرى؟

كان سؤاله باهتمام..

- بل مات.

ظهرت علائم الطمأنينة على الرجل، وقال بتكلف:

- هذا خير لنا جميعا.
- وهل كان خطيرا؟
- إن كنت تقصد أنه نزاع للتقل فليس هوكذلك، بل مسالم وهوذكى جدا لكنه ملىء بالأسرار، والظاهر أن الجمعية الصينية السرية هي التي أسكتته!
شعرت بالرعدة تسرى فى جسدي ثم قلت:
- كم مضى عليه وهوعلى هذ الحال؟
- قرابة السنتين.
قال بوارو- بهدوء -: ألم يخطر ببال أحد أنه ربما يكون عاقلاً؟
سخر الرجل وقال:
- لوأكن عاقلاً ما كان في ضيافتنا، إنهم جميعا يزعمون أنهم عقلاء.
ثم دخل الرجل وعرف الجثة وقال:
- الآن على أن أذهب لأتخذ الخطوات اللازمة، لن ندع الجثة عندكم طويلا، أرجوأن تساعدوا الشرطة في التحقيق، شكراً لك يا سيدي.
وأنسل الرجل من عندنا.
وصل جاب بعد بضع دقائق؛ كان واثقاً من نفسه وأنيقاً على عادته:
- أنا مستعد للعمل يا سيد بوارو، كنت أظنك ذاهبا إلى الشواطئ المرجانية..
- هل تعرف هذا الرجل من قبل؟
سادت الدهشة والحيرة نظرات جاب الفاحصة إلى الجثة، ثم قال بنبرة فيها بنبرة فيها خوف وارتباك:
- كأنى أعرفه.. دعنى أرى.. إن لى ذاكرة اعتز بها.. آه! أنه ما يرلنج! مايرلنج رجل الاستخبارات السرية، ذهب إلى روسيا قبل خمس سنوات وانقطعت أخباره، كنا نظن أنه قتل!
وهم جاب أن يخرج فقال له بوارو:
- كل شيء يبدومعقولاً، لكنه مات ميتة عجبا!
أخذ الهواء وقد هب عبر النافذة المفتوحة يداعب الستائر في حين جعل

بواروينظر إلى الجثة بعبوس واضح:

- هل فتحت النافذة؟

- لا لم أفعل لقد كانت مغلقة.

- كانت معلقة لكنها مفتوحة الآن، ما معنى ذلك؟

- شخص ما دخل من النافذة..

- هذا جائز لكنه ليس ما يشغل بالي، إنما راعي انتباهى أن النافذتين مفتوحتان لا واحدة!

اندفع نحوالغرفة الأخرى ثم صاح كمن وجد شيئاً:

- نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضا، وقد كنا تركناها موصدة.. ها..

مال فوق الجثة واخذ يتفحص فم القتيل بدقة ثم قرر واثقاً:

- شيء ما ألقم في فمه ليسكت ثم سم!

شعرت بالصدمة وأوجست خوفاً في جسدى، قلت:

- بعد التشريح تعرف الحقيقة.

- لن تعرف شيئاً، لأنه مات من استنشاق حمض البروسيك الحاد سريع التطاير بعد أن لصق بفمه تماماً ثم هرب القاتل اندفع نحوالغرفة الأخرى ثم صاح كمن وجد شيئاً:

- نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضا، وقد كنا تركناها موصدة.. ها..

مال فوق الجثة وأخذ يتفحص فم القتيل بدقة ثم قرر واثقا:

- شيء ما ألقم في فمه ليسكت ثم سم!

شعرت بالصدمة وأوجست خوفا في جسدى، قلت:

- بعد التشريح تعرف الحقيقة.

- لن تعرف شيئاً، لأنه مات من استنشاق حمض البروسيك الحاد سريع التطاير بعد أن لصق بفمه تماماً ثم هرب القاتل بعد أن فتح الشبابيك كلها. الأطباء سيسجلونها ميتة طبيعية ولن يجدوا أثراً يعرفونه وسوف يسدل النسيان على رجل الاستخبارات السرية الذي مضت على اختفائه خمس سنين!

ثم اهتز بواروفجأة وهوينظر إلى ساعة الحائط:

- توقفت عند الرابعة! لقد عبث بها شخص عبثاً مقصوداً!

- ترى لماذا فعلوا ذلك؟ من أجل التضليل؟

- لا يا صديقي اعمل فكرك، شغل خلايا دماغك الرمادية مايرلنج كان ينتظر الموت المحتوم، كان في صدره أشياء خطيرة، لقد استطاع أن يترك علامة واضحة قبل أن يلفظ أنفاسه.. رقم «٤» «المدمر».. آه لقد جاءتني فكرة..

اندفع سريعا نحوالغرفة الاخرى وأمسك بالهاتف وطلب هانويل:

- هنا مستشفى الأمراض العقلية؟ لقد علمت بهروب مريض من المستشفي اليوم.. هل سمعت يا هيستنجز ؟ لم يطرأ أى هروب!

- لكن القيم الذي أتى.. هل تظن؟..

- المدمر، أنه رقم «٤».

فقدت قدرتى على التركيز، شعرت أننى لا أستطيع الكلام، حاولت لملمة نظراتى المشدوهة، حاولت خرق الصمت الذي سببته لي المفاجآت المذهلة ونطقت:

- سوف نعرفه إذا رأيناه في أى مكان آخر، مازلت أذكر ملامحه جيدا، كان رجلاً ذات شخصية حازمة

سخر بواروبي:

- حقا يا عزيزي؟ بل كان قوى الجسم ذا وجه أحمر وشارب غليظ وصوت شحن، في المرة القادمة لن تجد فيه صفة من هذه الصفات، سيغير لون شعره، ويتخذ طقم أسنان صناعياً رائعاً، وأذنين عجباً، ونظرات مختلفة.. كشف الهوية ليس سهلا يا صاحبى.. في المرة القادمة..

- هل تظن أنه بعد هذه المرة مرة قادمة؟

كان وجه بوارويفيض حزماً وجداً وهدوءاً، وكانت ملامحه تنطق بالعزم والإصرار، لكن فيه ذهول وشرود، ثم تحدث بنبرة قوية:

- إنها مبارزة حتى الموت يا صاحبي، نحن في جانب والأربعة الكبار قبالتنا، لقد ربحوا الجولة الأولى، ربما لكنهم ما استطاعوا أن يبعدونى من طريقهم، عليهم أن يحسبوا لهيركيول بواروألف حساب..

الفصل الثالث

عجزاً حاول إخراج بوارو عن صمته خلال الأيام القليلة التي أعقبت فعله القتل القذرة وزيارة قيّم المصحة العقلية المشؤومة تلك.

ظل بواروعلى مقعده الكبير يفكر تفكيراً شاقاً، احبط كل محاولاتي على حمله على الحديث.

كنت – طوال هذه المدة – انتظر رجعة المجرم الشقي، ورفضت أن أغادر البيت ولوللحظة واحدة ظنا منى أنه ربما يعود ليأخذ الجثمان لا سيما أنه لا يشك بتاتا أننا قد عرفناه، سخر منى بواروثانية وقال:

- فلتنتظر يا صديقي ماشئت حتى تضع الملح على ذل الطير الصغير، أما أنا فعلا أضيع وقتي مثلك.

حاولت أن أجادله:

- حسنا يا بوارو، لماذا غامر إذن فأتى في المرة الأولى دون سبب ولم يكسب منا شيئا؟ أنا إذن أستطيع أن ألتمس سببا لزيارته الثانية ربما كى يمحوالدليل ضده.

وسخر مني مرة أخرى بطرقته التهكيمة وقال:

- أنت لا تنظر بعين رقم «٤» يا هيستنجز، ليس ثمة دليل ضده، الجثة عندنا ولا دليل أنها قتلت قتلا لأن حمض بروسيك حين يستنشق لا يبقى له أثر، ثم هل عندك شاهد على القاتل؟ بل لن تجد من يشهد أنه رأى رجلاً دخل البيت في غيابنا.

إن المدمر يتقن حرفته جيدا وبمهارة تامة، نستطيع أن نقول بإن زيارته كانت للاستطلاع، يريد أولا أن يتأكد من موت مايرلنج ثم أن يرى هيركيول بواروويخاطب الخصم الذي يجب أن يحسب له – وحده – ألف حساب، أن

يخاطبه عياناً، نعم.

قلت في نفسي: أى غرور قد أصاب بوارو! وجادلته قائلاً:

- وماذا عن التحقيق؟ أظنك تستطيع أن توضح الصورة تماما وتخبر الشرطة عن أوصاف رقم «٤» كاملة، أليست كذلك؟

- لن تحقق فائدة ولن تعرف شيئاً ولا يهمنى ذكر أوصاف رقم «٤»، لن تستطيع أن نغير قرار هيئة المحلفين الحكماء الذين سيسجلون بأن موته عارض وربما نفسح لمجرمنا الذكى أن يقول بفخر إنه استطاع غلبة بواروفى الجولة الأولى!

وهكذا كانت تصدق نبوءات بوارو، أنه بلا شك ذوبصيرة!

نحن لم نر قيّم الصحة العقيلة مرة أخرى، ولم يحقق التحقيق شيئا ولا أثار اهتمام الناس وإن كنت قدمت إفادتى في القضية، وهكذا ذهبت طي النسيان!

شعرت بعد نحوأسبوع بالسرور حين تفضل على بواروبسألني إن كنت أرغب في مرافقته في زيارة اعتزم القيام بها، وسألته عن مكانها لكنه لم يجبني، هكذا هوبوارو: غامض كتوم لا يبدى سراً حتى النهاية.

شعرت أنه مخطئ إذا سعى إلى الحل وحده من غير معين، جادلته لكن بلا فائدة!

كنا نتنقل من حافلة إلى أخرى تباعاً، ثم أقلنا القطار إلى إحدى ضواحى لندن الكئيبة، ومازالت الهواجس تنتابني وذهني يشرد من أمر إلى أمر ومن فكرة إلى أختها! ثم إذا ببواروينطق:

- نحن ذاهبان يا هيستنجز لنرى الرجل الوحيد في انجلترا الذي يعرف كثيرا من دقائق وأسرار الحياتة في الصين..

- عبجا! من هو؟

- رجل لم تسمع به من قبل، هوموظف مدني مسرح، ذوذكاء حسن، له بيت ملىء بالتحف الصينية التي يضجر منها أصدقاوه وخلّانه، لقد أكد لي العارفون أننى لا أجد سواه من أجل ما ابحث عنه، أنه السيد جون انجليز..

وفي بضع لحظات كنا على عتبة بيت «الأكاليل» بيت السيد انجليز، وسألت

نفسي عن سر هذه التسمية المبهمة، لاننى لم أر شجرة إكليل قط!

كان فتى صينياً بوجه ذي ملامح جامدة يقف عند المدخل سمح لنا بالدخول ثم قادنا إلى غرفة المجلس حيث كان سيده.

رجل عريض المنكبين، قصير يبدوماكراً، عيناه غائرتان تشبان بشخصيته. نهض يرحب بنا وكان يمسك رسالة مفتوحة، قال:

- هلا جلستما؟ قد اخبرنى هاسلي في رسالته أنك تريد معلومات تنفعك في مسألتك.

- نعم يا سيدى، جئت التمس بعض المعلومات عن شخص يدعى لي شانج ين..

- كيف سمعت بهذا الرجل؟

- أنت إذن تعرفه؟

- قابلته مرة واحدة، وأعرف عنه القليل، ليس القدر المطلوب.. لكنني أشعر بالمفاجأة لان رجلاً آخر في إنجلترا قد سمع بشانغ ين، ذلك رجل عظيم من طبقة الماندارين «كبار زعماء الإمبراطورية الصينية الأولى» أنت تعلم لكن نقطة الحسم ليست هذه، عندى سبب مقنع أنه الرجل الذى يقف وراء كل ذلك..

- وراء ماذا؟

- وراء كل شيء: القلاقل والمصاعب العمالية فى أنحاء العالم كلها، والثورات التي تتأجج هنا وهناك، الذين يعرفون الحقيقة ويستطيعون قولها قلة، يقولون: إن وراء الأحداث قوة خفية تسعى لتحطيم الإنسانية والحضارة، صدقنى إن لينين وترتسكى في روسيا ما هما إلا دميتان تتحركان بفعل قوة خفية مسيطرة ودماغ مستتر، ليس عندى برهان لكننى مقتنع تماما بأن هذا الدماغ هولي شانج ين!

- آه ما هذا؟ هذا خيال! كيف يستطيع رجل صينى أن يدير الأحداث في روسيا؟

قلت هذه الكلمة معارضا فنظر إلى بواروشزر وعبس وزجرنى قائلاً:

- هذا عندك يا هيستنجز، فذاك مبلغك من الفهم، دع عنك مالا يعنيك، أما أنا فإني على قناعة بما يقول الرجل، أكمل ياسيدى أرجوك.

- لا أستطيع أن أجزم بحقيقة ما يسعى إليه هذا الرجل بدقة، لعله مرض العقول العظيمة الذي يصيب العظماء منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى عصر نابليون بونابرت والعصر الحديث، التوق الشديد إلى السلطة والرغبة في التفوق والعلوبقوة، أما في هذا القرن، قرن الثورات والقلق فإن رجلاً مثل لي شانج ين يستطيع وسائل أخرى، عندى الدليل أن لديه أموالا طائلة يشترى بها الضمائر ويرشوها، ودلائل أخرى تشير إلى أن عنده قوة علمية مذهلة لا تتهيأ لبعض الدول في هذا العالم!

سأل بوارو الذي كان يصغى بانتباه شديد ويقظة تامة:

- وفي الصين هل يملك الحركة والأثر أيضا؟

هز انجليز رأسه:

- أجل ربما لا أستطيع تقديم دليل تعتد به المحكمة لكن لدى علما يقول أن كل أولئك الرجال الكبار الذين يعظمهم الناس هم في الحقيقة - دمى ترقص إذا سحبت خيوطها يد خفية تحركها إنها يد لي شانج ين: الدماغ المهيمن على الشرق كله! نحن لا نفهم الشرق ولن نفهمه، لكنني أفهم لي شانع ين وروحه المحركة، لا يظهر للناس ولا يستطيعون رؤيته، أنه لا يخرج من قصره في بكين، وخيوطه ممتدة في كل مكان، هذا هوجوهر المسألة ثم تجرى الأحداث بعيدا جدا!

بوارو: أليس في هذا العالم من يعارضه؟

اعتدل انجليز في جلسته ثم مال إلى بوارو ودنا منه وتكلم بصوت خافت كأنه يفشي سرا:

- أربعة رجال حاولوا معارضته في السنوات الأربع الأخيرة، وجال أذكياء مفكرون وعلى خلق متين وأمانة ومسئولية، لكنهم كلما عارضه واحد منهم سكت إلى الأبد!

سألته: ثم ماذا يكون؟

- لا ترى منهم أحداً أنت لا تعي كتب أحدهم مقالاً يذكر فيه اسم شانج ين بحوادث الشغب في بكين فوجد بعد يومين مطعونا في الشارع ولم يقبض على قاتله! جريمة الثلاثة الآخرين كانت هي نفسها: مقالة أوخطبة أوحديثا، وفي

غضون أسبوع ترى أحدهم فارق الحياة، أحدهم مات مسموما، والثاني مات بوباء ما، والثالث وجد مقتولا في سريره دون أى أثر لمقتله، لكن الطبيب الذي فحص الجثة حدثني أنه رأى الجثة وقد احترقت بصورة عجيبة من الكهرباء سرت فيها!

بوارو: ربما ترى علامة على العلاقة بين مصرعه ولي شانج ين لكن لابد من إشارات...

- ها، علامة! نعم، نعم بالتأكيد، لقد جاءني مرة شاب صيني مختص بالكيمياء متوقد الذكاء، كان يعمل لحساب شانج ين، أراد أن يحدثني بالتلميح عن تجاربه التي كان يجريها في القصر على الحمالين، وقال وهوعلى حافة الانهيار العصبي بأنه عمل مقرف يزدرى الحياة الإنسانية! ثم أصابه رعب كاد يقتله، كانت حالة تثير الشفقة في الأكباد التي لا تعرف الرحمة.. حملته إلي السرير في الغرفة العلوية ليحدثني في الليلة التالية لكن فعلتي هذه كانت عملاً أحمق غبياً!

بوارو: كيف وصلوا إليه؟

- هذا ما لم أعرفه.. صحوت تلك الليلة والنار تأكل منزلي وكنت محظوظا بالفرار أنا وزوجتي، ثم تبين من التحقيق أن نارا عظيمة اندلعت في الطابق الأعلى جعلت عظام صديقي الشاب رمادا!

تخيلت إنجليز وهويتكلم بجد وحماسة كأنه حصان من حجر وبيده سيف من خشب وقد غرق في لجة العاطفة، لكنه حين نظر إلى أدرك أنه مجروف بحماسته، ضحك يعتذر:

- أجل ليس عندى دليل واحد، وأحسب أنك مثل غيرك تقول بإن كلامي أوهام مجردة وأحلام.

- كلا، بل إنى أصدقك يا سيدى؛ لأن لي شانج رجل في غاية الأهمية في نظري.

- ما كنت أتوقع أن أجد أحدا بين الأحياء في انجلترا قد سمع به أبدا، واجد نفسي مدفوعاً لأسألك: كيف عرفت عنه لوسمحت؟

- لقد لجأ إلى منزلي رجل مصاب بصدمة عصبية حادة، وكانت حالته النفسية والبدنية سيئة، لكنه استطاع أن يخبرنا شيئاً مثيراً حول منظمة غريبة تدعى «الأربعة الكبار» يرأسهم لي شانج ين وهوعقلها المدبر والثاني رجل أمريكى

والثالث امرأة فرنسية، والرابع لقبه «المدمر»، لكن من أعلمنا بهم قد مات، فهلا أخبرتني يا سيدى عن منظمة الأربعة الكبار؟ هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟

- قد سمعت بها أخيرا، لكن ليس بصفة ارتباطها بلي شانج ين، أكاد لا أعرفهم.. ها، تذكرت...

نهض قائماً وأتجه سريعاً إلى خزانةعتيقة في زاوية الغرفة، ورجع وهويحمل رسالة مفتوحة..

- رسالة من ملامح عجوز قابلته مرة في شنجهاي، رجل قد اشتعل رأسه شيبا، يمضي معظم وقته ثملا فحملت الرسالة على أنه هذيان رجل سكران ليس غير!

قرأها بصوت عالي..

«سيدي».

ربما لا تتذكرنى لكنك أسديت لي في شنغجهاي معروفاً آخر، إنني في أشد الحاجة إلى قدر من المال حتى أستطيع الخروج من هنا، أنا مختبئ تماما لكنهم قد يصلون إلي في أي يوم، أقصد الأربعة الكبار.

إنها مسألة مهمة خطيرة، حياة أم ممات، عندي مال كثير لكن يصعب على السعى إليه مخافة أن يعرفوا مخبئى!

أرسل لي ورقتين من فئة المائة جنيه وسوف أردها أن تكون لك، أقسم يا سيدى!

جوناثان والي.

- صادرة عن: جرانيت بنجالو، هوياتون، دارتمور، لقد خشيت أنها حيلة سخيفة لسلب مائتي جنيه مني صعب عليّ جمعها، فإذا كانت هذه الرسالة تنفعك شيئا فلترسل له مائتي جنيه.

- شكرا لك يا سيدى، سوفق انطلق الآن إلى هوباتون!

- وهل تمنعني أن أرافقك؟

- سأكون مسروراً بصحبتك، هيا، يجب أن نذهب من فورنا، لنصل إلى دارتمور قبل ظلمة الليل.

وفي غضون دقيقتين كان جون إنجليز مستعدا، وفي الحال كنا في القطار

الذي ينطلق من حدود بادنعتون نحوالريف الغربي.

هوباتون قرية صغيرة تقع على أرض سبخة في غور منخفض، تبعد تسعة أميال عن موتورن هاستيد ركوباً في السيارة.

كانت الساعة حين وصلنا الثامنة، لكن ضوء النهار مازال مشهودا فوق المكان.

اتجهت السيارة عبر الشارع الضيق في القرية، ثم توقفنا عند عجوز ينتظر في قارعة الطريق، سألناه عن القرية فقال الرجل العجوز متأملاً:

- جرانيت بنجالوا.. هل تريدون جرانيت بنجالو؟

ثم هز رأسه كأنما ذكر شيئاً، ثم أشار نحوكوخ رمادى ناء في آخر الطريق:

- هناك البنجالو، هل تريدون رؤية المفتش؟

بواروبدهشة: أى مفتش؟ ماذا حدث؟

- إذن فلم تسمعوا بالجريمة؟ لقد كانت مروعة! حماما من الدم كما يقولون!

بواروهامسا: يجب أن أقابل هذا المفتش.

مضت خمس دقائق قبل أن نجد المفتش الذي لم يكن يرغب الحديث معنا وبدا مترددا وكتوما، حتى ذكرنا له اسم «جاب» مفتش سكوتلانديارد المشهور تغير أسلوبه وصار حسنا:

- نعم يا سيدي، لقد قتل الرجل صباح اليوم.. جريمة في منتهي البشاعة، والحادث غامض من أوله، فعندما قدمت إلى مكان الحادث أثر مكالمة تليفونية وأنا في موتورن إذا برجل عجوز في السبعين من عمره مولع بكأسه كما قالوا ممدودا على الأرض في غرفة المعيشة وفى أعلى رأسه أثر كدمة عنيفة وقد ذبح من الأذن إلى الأذن، الدم ملأ المكان وتماثيل صينية اختفت من البيت، ربما في ذلك إشارة إلى سطولكن يخرق هذا الظن الأمور، فالبيت فيه خادمان: بتسي أندروز، امرأة من هوباتون، ورجل فظ يدعى روبرت جرانت.

أندروز خرجت لتثرثر مع جارتها في حين ذهب جرانت كعادته في كل صباح إلى المزرعة كي يجلب الحليب، وعندما رجع دخل من باب البيت الخلفى فرأى الأبواب مفتوحة، ثم وضع الحليب ومضى يقرأ الصحيفة في غرفته ويدخن، ولم يكن يعلم شيئا يزعمه.

أما بتسي فدخلت غرفة المعيشة فصرخت صرخة مريعة توقظ الأموات، هكذا قال جرانت.

شخص ما دخل البيت وهما خارجه وقتل العجوز المسكين!

لابد أن يكون لصا وقحا قدم من القرية ثم زحف فى إحدى الساحات، هذا ظني لكن البيوت كما ترى - محيطة بكل أنحاء جرانيت بنجالو، وكل من غيرها يرى، ولا سيما الغريب.

ثم سكت المفتش بحركة درامية وقال بوارو:

- ها لقد فهمت، أكمل..

- حسنا يا سيدى، هذه مسألة تثير الشك، لقد شد انتباهي اختفاء التماثيل الثمينة، إذ لا يدرك قيمتها متسكع دوار، وفي كل الأحوال فارتكاب الجريمة في وضح النهار مغامرة مجنونة، ألم يخش المجرم أن يستغيث العجوز بالصراخ؟

إنجلير: أظن أيها المفتش أن الكدمة التي ظهرت في رأسه كانت قبل الوفاة؟

- هذا صحيح تماما يا سيدى، ضربة شرسة على الرأس ثم أتى على حنجرته فقطعها من الوريد إلى الوريد، لكن عجبا كيف جاء؟ وكيف ذهب؟ إني أظن أن أحد لم يأت من الخارج، نظرت في المكان نظرة فاحص، كانت ليلة أمس ليلة ماطرة، رأيت أثر أقدام راحت وجاءت من المطبخ، نظرت في الأثر في غرفة المعيشة: أثر قدم بتسي وقدم والي في حذاء من القماش وقدم رجل آخر!

لقد مشى ذاك الرجل فوق بقع الدمع، فتعقب هذه الآثار الدموية فرأيت واحدة على عتبة باب روبرت جرانت، ورأيت لطخة من الدم باهتة في الغرفة.

أما الشيء الآخر فإننى أمسكن حذاء جرانت وطابقته مع الأثر فرأيته منطبقا فعرفت أن القاتل كان فعلا من الداخل، لقد اعتقل جرانت من أجل التحقيق وكان يتجهز للسفر، هل تدرى ماذا وجدت في حقيبته المخرومة؟ لقد وجدت فيها التماثيل الثمينة وتذكره، كان روبرت جرانت هر أبراهام بيجز الذي أدين بجريمة سابقة واقتحام منزل قبل خمس سنين.

ونظر المفتش إلينا نظرة زهووفخر وقال:

- فماذا ترون أيها السادة؟

بوارو: جلاء القضية هكذا يثير الدهشة! إن بيجز أوجرانت هذا أحمق، ويبدوأنه غير متعلم، أليس كذلك؟

- ها، أنه كذلك: فظ غليظ القلب، أمى لا يعرف ما مغنى أثر القدم؟

- من الواضح أنه لا يدرك خيال رجل التحرى! حسنا، أهنئك أيها المفتش، لكننا نود لونرى مسرح الجريمة.

- سوف نذهب معاً وأريدكم أن تطلعوا على آثار الأقدام.

- هذا ما أريد أن أراه بعيني.

وانطلقنا خلف المفتش الذي كان يعدوأمامنا بخفة ونشاط، ثم جذبت بواروإلى قليلاً لأهمس في أذنه ولا يسمعني المفتش:

- ماذا تتوقع يا بوارو؟ هل في الأمر شيء آخر؟

- أجل يا صديقي، لقد أخبرنا السيد والي صراحة أن الأربعة الكبار يتعقبونه، إن كان جرانت قد فعلها فلماذا؟ من أجل تمثال صغير؟ أم هوجندى للأربعة الكبار؟ وهذا ما أراه أنا..

هل كان جرانت يفهم قيمة هذه التماثيل؟ ألم يكن يستطيع أن يسرقها ويهرب ولا يقدم على فعله المروع هذا؟ إننى أخشى أن صاحبنا المفتش لم يشغل خلاياه الرمادية، بل قاس آثار الأقدام وغفل عن التفكير العميق ونسق أفكاره بأسلوب محكم رصين.



الفصل الرابع

أخرج المفتش مفتاحا من جيبه وفتح باب جرانيت بنغالو، ومسحنا أقدامنا تماما قبل الدخول.

أقبلت امرأة من بيت الجيران وكلمت المفتش، هز رأسه ثم قال لنا:

- عاين المكان يا سيد بوارووابحث فيه كما تشاء، سأعود خلال عشر دقائق، هذا هوحذاء جرانت، لقد حملته حتى تقارنه بدمغة الأقدام.

ودخلنا غرفة المعيشة وكنت اسمع وقع أقدام وهويبتعد خارجاوواتجه إنجليز نحوبعض التحف الصينية يتفحصها، وقد أثارت اهتمامه، وبدا كأنه نسى بوارو.

وراقبت - بصمت - ما يفعله بوارو.. كانت الأرض مغطاة بمشمع أخضر قاتم تبين منه أثار الأقدام جليا، وفي البيت باب يؤدي إلى مطبخ صغير، وباب أخر إلى مغسلة الأطباق وباب أيضا إلى غرفة النوم التي تخص روبرت جرانت.

فحص بواروالبلاط ثم قال كأنما يخاطب نفسه:

- هنا كانت الجثة ممدودة، بقع الدم تحدد المكان، أثار الحذاء القماشي وأثار أقدام أخرى.. هذا شيء عجيب! آثار أقدام تجيء وتروح من المطبخ أيا كان القاتل فقد جاء حتما من هذه الطريق.. هيستنجز، أعطنى الحذاء..

قارنه بعناية بآثار الأرض الواضحة:

- نعم، هما طبق على بعضهما، روبرت جرانت دخل من هنا، قتل العجوز وعاد إلى المطبخ ومشى فوق الدم، هل ترى آثارا من المطبخ؟ لا شيء في المطبخ مهماً، هل ذهب إلى غرفته؟ لا، عاد مرة أخرى إلى مسرح الجريمة، هل كان ذلك من أجل التماثيل أم أنه نسى شيئا قد يدينه؟

قلت: ربما قتل العجوز في المرة الثانية التى دخل فيها.

- كلا أنك لم تلحظ ذاك الأثر الملطخ بالدم وفوقه أثر آخر، إننى أعجب، لماذا عاد؟ هل من أجل التماثيل؟ كأن فكرة خطرت له من بعد! كل شيء يبدوغريباً..

- حسنا إنه يفضح نفسه بيأس كبير.

- ليس كذلك، بل هويجعل خلاياي الرمادية في حيرة..

- ماذا عن المرأة العجوز؟ كانت في البيت وحدها بعد أن خرج جرانت للحليب، لعلها قتلته، ثم خرجت أوأن قدميها لم تتركا أثراً إذا لم تكن في الخارج.

- لقد بحثت هذه النظرية ورفضتها، بتسي آندروز امرأة محلية، إنها بنت القرية، لا يعقل أن تكون لها صلة بالأربعة الكبار، ثم إن أبي كان رجلاً قويا، ناهيك أن هذا العمل من فعل رجل لا امرأة.

- أظن أن الأربعة لم يتبعوا حتى الآن وسيلة تختفي في السقف ثم تنزل بصورة آلية لتقطع حنجرة الرجل العجوز ثم تصعد إلى أعلى مرة أخرى ولا تترك أثرا!

- مثل سلم جاكوب الحبلي؟ أعلم يا هيستنجز أن لك خيالا واسعا، ولكنني أتوسل إليك كي تبقيه ضمن الحدود المعقولة.

أغلقت فمي خجلا واستمر بواروفي التجوال في المكان: يقتحم الغرف، يعبث بالخزائن، يقلب الأشياء وقسمات وجهة تنطق بالحيرة وعدم الرضا.. وفجأة أصدر صرخة مثيرة كصرخة كلب بولندي فانطلقت إليه مذهولا فألفيته في غرفة حفظ الأطعمة في مشهد درامي ويده تمسك فخذاً من لحم الضأن ويلوح بها! صرخت بعطف:

- عزيزي بواروماذا دهاك؟ مس أم جنون؟

- أرجوك انظر إلى قطعة الضأن هذه، انظر إليها عن قرب.

نظرت إليها بإمعان وجعلت أقترب منها لكني لم أر فيها شيئاً..

- قطعة من اللحم كغيرها كل ما فيها مثل سواها..

قلت له ذلك وأنا تأكلني الشكوك والحيرة من هذا الموقف.

- ولكن ألا ترى؟..

وكانت يده تعبث بالثلج المتراكم عليها، لقد اتهمني بواروبسعة الخيال، لكن خيالي عاجز عن تفسير سبب اهتياجه، هل كان الثلج أطباقا بلورية من السم قاتل؟ هل هذا هوالوجه الذي عرفته بعد جهد، لكني لم أجرؤ على البوح بما

في صدري فقلت بلطف:
- هذا لحم مجمد مستورد من نيوزيلندا.
وانجز بواروبضحكة غريبة تتر سخرية وتهكما:
- كم هورائع صديقي هيستنجز واسع الاطلاع يكاد يعرف كل شيء.
قالها ووضع لحم الضأن في طبقه مرة أخرى وخرج أطل من الشباك ثم قال:
- ها هو ذا المفتش، لقد رأيت كل ما أريده.
ضرب بقبضة يده على الطاولة وهوشارد الذهن ثم سألني:
- ما اليوم يا صديقي؟
- الاثنين.
- الاثنين، نعم، هذا اليوم ارتكبت جريمة مروعة! - حدق إلى ميزان الحرارة -.. الجومعتدل، هذا يوم إنجليزي صيفي!
مازال انجليز يتفحص قطع الفخار الصيني كأن الأمر لا يعنيه، خاطبه بوارو:
- كأنك غير مهتم بهذا التحقيق يا سيدي..
تبسم انجليز:
- أنه ليس من شأني، أنا خبير أمور أخرى، حسبي أن أقف بعيدا في الخلف، لقد تعلمت في الشرق أن أصبر.
دخل المفتش مسرعا وهويعتذر وأقسم علينا أن نخرج إلى المناطق المجاورة، فنزلنا إلى شارع القرية معا، قال بوارو:
- إنني أقدر فيك لطف المعاملة ودماثة الخلق ولكن لي مطلبا عندك!
- ربما تريد رؤية الجثة يا سيدي؟
- كلا ليس هذا، بل أرغب في مقابلة روبرت جرانت!
- إذن فلتعد معي إلى مورتون لتراه يا سيدي
- أفعل، لكنني أريد لقاءه وحده.
- لا أستطيع أن أعد بذلك يا سيدي
- تأكد أنك إذا اتصلت بسكوتلانديارد فسوف تجد الجواب الحسن.
- قطعا، لقد عرفناك يا سيدي وعرفنا خدماتك الجليلة، لكن هذا مخالف للقانون.

- لكنه ضروري، ضروري جداً، أتدري لماذا؟ لأن جرانت ليس هوالقاتل.
تجهم المفتش وقد أذهله الحديث:
- ماذا فمن إذن؟
- أظن القاتل رجلاً شابا جاء إلى جرانت بنجالويجر عربته، ثم تركها في الساحة ودخل وفعل فعلته، ثم خرج إلى عربته وقفل عائدا يجر عربته، كان حاسرا الرأس وثيابه ملطخة الدماء قليلاً ..
- لكن كل القرية سوف تراه؟
- لن يحصل ذلك في ساعة ما.
- ربما في الظلام لكن الجريمة تمت في وضح النهار!
اكتفي بوارو بابتسامة خفيفة..
- والحصان والعربة ياسيدي، لا أدري ما هذا الذي تقول؟ لم تمر علي الطريق عربات ذات عجلات، ولا أثر لها رأيناه!
- ربما لم تستطع عيون الناس رؤيتها لكن عين العقل تستطيع، نعم.
لم يبد المفتش قناعد بهذا القول ومسح جبهته بيده ونظر إلي وهوييتسم ابتسامة عريضة، كنت محتارا مثله، ولكني كنت على ثقة بقدرة بواروفلم استطع الحديث، وما زال النقاش في المسألة حتى وصلنا إلى مورتون.
وذهبنا إلى جرانت، كان الأمر يلزمه شرطي معنا، وتكلم بواروفي الأمر صراحة:
- جرانت، أعرف أنك بريء من هذه الجريمة فاسرد على الحكاية كلها.
كان السجين رجلاً متوسط الطول، ملامحه تدعوإلى النفور ولا تبعث الطمأنينة، بدا كأنه رجل يألف السجون، انتحب وقال:
- أقسم برب الملائكة أني لم أفعل ذلك أبدا، شخص ما وضع هذه التماثيل في حقيبتي، لقد كانت مكيدة، والذي حدث أنني ذهبت مباشرة إلى غرفتي عندما دخلت إلى البيت ما كنت أعلم شيئا حتى صرخت بيتسي.. ساعدني يا رب فإني لم أفعلها.
نهض بواروكأنه يريد المغادرة، قال:
- إن لم تستطع أن تقول الحقيقة كاملة فإن هذه هي النهاية.
- ولكن.
- لقد ذهبت إلى الغرفة حقاً، لكنك كنت تعلم أن سيدك كان ميتاً، وكنت

تستعد للفرار حين عرفت بيتسي الطيبة هذه الفعلة المفزعة.

حدق الرجل إلى وجه بوارووبذهول تام، قال بوارو:

- ماذا أصابك؟ سأقول لك كلمة أخيرة: صدق أن هذه فرصتك الأخيرة إن كنت صريحاً.

- سأعترف بالحقيقة، لقد كان الأمر كما قلت تماماً: دخلت وذهبت مباشرة إلى السيد فوجدته ميتا على الأرض والدماء حوله، ثم خطر ببالى أنهم سيكشفون صحيفتي السابقة، ويقولون حتما بإنها من فعلتي قبل أن يعرفوا الجاني!

- وماذا عن التماثيل؟

تردد الرجل:

- أنت ترى..

- لقد أخذتها بدافع الغريزة، أليس كذلك؟ سمعت سيدك يقول بإنها قيمة وأردت أن تأخد أكثر من حقك، إنى أفهم ذلك.. الآن أجبني عن هذا السؤال: هل سرقتها في المرة الثانية التي دخلت فيها الغرفة؟

- لم أذهب مرة ثانية، مرة واحدة فقط.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.. متأكد بلا ريب يا سيدي؟

- قبل شهرين..

- كيف تدبرت هذا العمل؟

- من إحدي جمعيات مساعدة السجناء، قابلني أحد رجالها حين خرجت.

- ماذا كان شكله؟

- ليس قسيساً لكنه بدا كذلك: قلنسوة سوداء ناعمة، طريقته في المشي مبالغة، له سن مكسورة، يلبس نظارة، كان يسمى نفسه سوندرز، قال لي: أمل أن تكون نادما وقد وجدت لك عملاً مناسباً! وذهبت إلى العجوز بتوصية منه.

- شكرا، الآن فهمت كل شيء، وعليك أن تصبر قليلاً .. - وخطا خطوات ثم التفت - إن سوندرز أعطاك حذاء، أليس كذلك؟

ارتعد جرانت من المفاجأة:

- يا إلهي! هذا صدق! لقد أعطانى حذاء ولكن كيف عرفت؟

- تلك هي مهنتي.. كشف الخفايا.

وبعد حديث قصير مع المفتش قمنا ثلاثتنا إلى مطعم وايت هارت كانت جلسة عامرة بالنقاش حول البيض واللحم وعصير تفاح ديفونشير، وسأل انجليز بواروبلطف:

- ألا من توضيح في النهاية.

- بل القضية واضحة تماما لكن يصعب إثباتها، قتل والي الأمر من الأربعة الكبار لا بيد جرانت، في القضية رجل ذكي استطاع أن يدبر عملا لجرانت لكي يجعله كبش فداء ويصبح الأمر سهلا بسبب سجل جرانت الإجرامي.

أعطاه زوجا من الأحذية وعنده حذاء مطابق تماما، والذي حدث أن جرانت خردج من البيت كعادته، وخرجت بتسي تثرثر في الرقية، وربما كانت تفعل ذلك دائما جاء صاحبنا وفي رجله الحذاء المطابق ودخل المطبخ وعبره إلى غرفة المعيشة وأسقط الرجل العجوز بضربة قاسية ثم عمد إلى حنجرته فقطعها، ثم عاد إلى المطبخ وخلع الحذاء ولبس حذاء آخر وصعد إلى عربته آمنا ومضي..

نظر انجليز إلى بوارونظرة تساؤل..

- لا يزال عندنا أسئلة تطالب بالأجوبة.. لماذا لم يره أحد؟

- نعم، هنا يكمن ذكاء رقم ٤، كل الناس قد رأوه، تأكد، لكنهم أقسموا لم يروا أحدا وهنا يجب أن نكشف شيئا: أنه كان يقود عربة الجزار..

صاح انجليز وقد استحسن هذا الرأي:

- هذا الشرير اللعين!

- نعم، ذاك رقم ٤ كم هوذكي.

وهمست:

- ذكي مثل هيركيول بوارو؟

رمقني بنظرة قاسية:

- تبدومنك كلمات ساخرة، ينبغي أن تنتهي يا هيستنجز، ألم أنفذ رجلا؟ ن هذا يكفي ليوم واحد.



الفصل الخامس

عندما برأ المحلفون روبرت جرانت صاحب السجل المنحول ليفز من جريمة قتل جوناثان وإلى كان ذلك مخالفة لظنون المفتش ميدوز الذي لم يكن قانعا ببراءته، فهو صاحب سجل إجرامي، والتماثيل وجدت في حقيبته، وحذاءه جاء مطابقا للآثار التي خلفتها قدما الجاني، كل هذا في الحقيقة يدعو إلى قلق المفتش الكبير.

لكن بواروا استطاع إقناع هيئة المحلفين بعد أن فرض بقوة شهادته ضد رغبة المفتش، فقد قدم شاهدين رأيا عربة الجزار وهى تسير نحو بيت البنجالوصباح ذاك الاثنين الذي تمت فيه الجريمة، وعند استجواب الجزار اعترف أن عربته تذهب هناك يومي الأربعاء والجمعة فقط.

واعترفت إحدي نساء القرية أنها رأت الرجل الجزار وهو يغادر البنجالو، وهي لم تستطع أن تقدم وصفا مفيدا له، لكنها مازالت تذكر شيئا قد علق في ذهنها: أنه رجل أوسط الطول حليق اللحية أشبه بالجزار تماماً.

قال بوارولي بعد المحكمة:

- تماما كما أخبرتك يا هيستنجز، أن هذا الرجل فنان لا يخفي شخصيته بلحية مزيفة ونظارة سوداء فحسب، فهذا أقل دور يتبعه الرجل المحترف، بل يستطيع أن يعيش متقمصا دوره بإتقان وعناية.

أجد في نفسي رغبة أن أعترف أن الرجل الذي زارنا من هانويل استطاع خداعي، لقد بدا ظاهرة يليق تماما بوظيفة قيم المصحة العقلية، لم يخطر ببالي ذرة من الشك في صدق شخصيته.

كان كل شيء يثير الشك، لكن خبرتنا الضئيلة في دارتمور لم تسعفنا بتاتا،

حاولت أن أجادل بوارووِلكنه لم يكن يعترف أننا لم نكتسب شيئا البتة وقال:

- نحن نتقدم يوماً فيوم، كلما تماسسنا مع هذا الرجل تعلمنا شيئا جديدا عن أسلوبه وتفكيره وهولا يعرف عنا ولا عن خطتنا شيئا.

قلت أعارضه:

- صراحة لا يبدوأن عندك خطة، كل ما في الأمر أنك تجلس تنتظره أن يفعل هوشيئا.

تبسم بواروابتسامة فيها سخرية ثم قال:

- يا صديقي، أنت كما أنت، لن تتغير يا هيستنجز .. - وسمع طرقا على الباب -.. ربما تكون هي فرصتك، لعله صاحبنا المنتظر!

ضحك بوارومن خيبتي عندما دخل المفتش جاب ومعه رجل، قال المفتش:

- مساء الخير يا سيد بـوارو، اسمح لي أن أعرِفك الكابتن كنت رجل الاستخبارات السرية الامريكية كان الكابتن كنت رجلاً طويلاً نحيفاً، له وجه ذوملامح جامدة كأنه نحت من الخشب، قال وهويصافحنا بقوة:

- تسرني رؤيتكما أيها السيدين:

أضاف بوارو قليلاً من الحطب في الموقد المشتعل وجلب كراسي أخرى أكثر راحة وذهبت أنا أحضر عصير البرتقال..

قال الكابتن بعد أن رشف رشفة عميقة من العصير البارد:

- القانون عندكم ميزته الثبات، فهولم يتغير منذ فترة طويلة.

قال جاب: والآن إلى العمل أيها السادة، لقد طلب مني السيد بواروأن اخبره - في أي وقت - إذا ذكر اسم الأربعة الكبار في عملي الرسمي، ولم أهتم كثيرا بهذا، لكنني ذكرت حين جاءني الكابتن كنت وقص علي قصة غامضة تثير التساؤل فقررت عندها أن نأتي سريعا إلى بيت بوارو.

نظر بوارو‌إلى الكابتن الأمريكي بإمعان عندما بدأ يسرد القصة:

- لعلك تتذكر يا سيد بواروأن عددا من المدمرات وقوارب الطوربيد غرقت في البحر اثر اندفاعها الغريب ناحية الساحل الصخري علي شواطيء أمريكا،

وكان ذلك عقب الزلزال الياباني تماماً كان التأويل العام لتلك الحادثة يومئذ أنها كانت نتيجة لموجة بحرية شديدة أعقبت ذاك الزلزال الرهيب، ولكن بل وقت قصير اعتقلت شرذمة من المحتالين والقراصنة، وضبط في حوزتهم بعض الوثائق التي أدت إلى فتح ملف القضية مرة أخرى وأخذت المسألة بعدا آخر أظهر أن الوثائق تخص منظمة مخفية تدعي الأربعة الكبار.

لقد احتوت تلك الوثائق وصفاً غير واف لبعض المنشآت اللاسلكية التي تعمل من أجل تركيز قوة مغناطيسية هائلة على بعد مسافة معينة أبعد من أي مسافة معينة أبعد من أي مسافة بلغتها، وهي قادرة علي تركيز إشارة لاسلكية ذات تردد عال فوق منطقة ما، لقد بدت هذه المزاعم حول إنجاز كهذا أقرب إلى الخيال، لكنها حولتها إلى القيادة من أجل الاطلاع والدراسة، ثم تولى الأمر عالم أمريكي كبير لدراسته وكشف حقيقته.

الجدير بالذكر أن أحد علمائكم الإنجليز أنجز بحثاً في هذا الأمر أمام الجمعية البريطانية، ولم يقدر زملاؤه خطر هذا الأمر حق التقدير، وكانوا جميعا على رأى واحد: أن هذا خيال حتما.

لكن هذا العالم ظل عرضه للهجوم والملاحقة لاسيما حين أعلن أنه يوشك أن ينجح.

بوارو- باهتمام بالغ -: حسناً، أكمل يا كابتن..

- أشير على أن أزور انجلترا من أجل مقابلة هذا الرجل العالم - واسمه هاليدى - صاحب الخبرة الغريزة في هذا الشأن من أجل أن أعلم كيف يمكنه أن ينفذ نظريته.

سألته بلهفة: وهل تم ذلك؟

- كلا لم أستطع رؤية الخبير هاليدي اختفى في ظرف غامض.

- متى.؟

- قبل شهرين.

- هل أبلغتم الشرطة؟

- حتما لقد أقبلت زوجته علينا وهي في اضطراب وقلق شديد، وحاولنا أن نبذل كل ما في طاقتنا لكنني كنت أعلم أن ذلك عديم الجدوى.

- عديم الجدوى؟ لماذا؟

طرقت عينا جاب قبل أن يتكلم:

- عديم الجدوى إذا اختفى رجل هكذا بهذه الطريقة.

- أية طريقة؟

- إنها باريس!

- هاليدى إذن اختفى في باريس؟

- أجل ذهب إليها في مهمة علمية، هكذا أخبر زوجته. لكننا نفهم معنى اختفاء رجل في باريس، فإما أن يكون اعترضه قاطع طريق فانتهى أمره، أوأنه اختفى بإرادته هو، وهذا يبدوأرجح: رجل مولع بالملذات الباريسية، سئم الحياة في وطنه، لأن هاليدى قد تنازع مع زوجته قبل سفره وهذا وضح الحكاية.

قال بوارووعلى وجهة علامة الاستنكار:

- هذا شيء عجيب!

كان الرجل الأمريكي ينظر إلى بواروبشيء من الفضل ثم تكلف في لهجته وهويطرح سؤاله:

- هل لك يا سيدي أن تخبرنا من هم الأربعة الكبار؟

- الأربعة الكبار منظمة دولية زعيمها صيني يدعي رقم ١ أما رقم ٢ فهورجل أمريكي ثري، رقم ٣ امرأة فرنسية، رقم ٤ المدمر، رجل إنجليزى.

صفر كنت عجبا وقال:

- امرأة فرنسية وهاليدى قد اختفى في فرنسا! ربما كان بينهما علاقة، ما اسمها؟

- لا أدرى، إنى لا أعرف عنها شيئاً.

- لكنها نظرة جديرة بالملاحظة، أليس كذلك؟

هز بواروراسه موافقا ويده تمتد إلى الطاولة الصغيرة تصف كؤوس

العصير، تلك هي عادته: يجب النظام والتنسيق! وقال كنت:

- هل الأربعة الكبار من عمل الألمان؟ وهل لهذه المنظمة علاقة بغرق الزوارق؟

- الأربعة الكبار يعملون من أنفسهم ومن أجل مصالحهم فقط أيها الكابتن، هدفهم هوالهيمنة على العالم.

انفجر الأمريكي بضحكة صاخبة لكنه قطعها حين لمحت عيناه وجه بواروصارماً جاداً، وقال بواروبتهكم وسخرية:

- أنت تضحك يا سيد، أنت لا تفكر، أنت لا تستعمل خلايا دماغك الرمادية.

قال جاب: والآن بعدما سمعت قصة الكابتن هل أستطيع خدمتك بشيء؟

- نعم، أريد عنوان السيدة هاليدي وتعريفاً موجزاً لها إن سمحت.

فى صباح اليوم التالى كنا نحث الخطى إلى شيت ويندلودج قرب قرية شوبهام، حيث كان في استقبالنا السيدة هاليدى فورا، كانت امرآة طويلة شقراء، حارة المزاج والحركة، معها طفلتها الصغيرة الجميلة في الخامسة من عمرها. سمى بوارونفسه وأوضح سبب الزيارة.

- ها! سيد بوارو، كم يسعدني مقدمك! أشكرك أشكرك، لقد سمعت عنك كثيرا، فأنت تختلف كثيرا عن رجال سكوتلانديارد هؤلاء الذين لا يكادون يفقهون الحقيقة، والشرطة الفرنسية وهم أسوأ، كلهم مقتنعون بأن زوجي قد هم زوجي هوعمله المخبري، نصف شجارنا كان من أجل ذلك، فهويحفل بعمله ولا يحفل بي!

بوارو- بهدوء -: هم كذلك الرجال الإنجليز: انشغال في العمل أوالرياضة، أنهم يحملون الأمور بجد كبير! والآن يا مدام هلا سردت على القصة بشيء من التفصيل والدقة وبما رأيت وسمعت قدر استطاعتك وظروف الاختفاء إذا أمكنك ذلك؟

- زوجي ذهب إلى باريس يوم الخميس ٧/٢٠، كان يريد مقابلة رجال كثر لهم صلة بعمله وزيارتهم، ومنهم مدام أوليفير..

هز بواروراسه لما سمع اسم الكيمياوية الفرنسية الشهيرة التي فاقت شهرتها العملية شهرة مدام كوري بما أنجزت بذكاء، لقد قلدتها الحكومة

الفرنسية وساما رفيعا وأصبحت أبرز علماء فرنسا المعروفين.

- وصل باريس في المساء وقصد من فوره فندق كاستيج ليون وفي صبيحة اليوم التالي كان على موعد مع الخبير بورجونوا الذي وفي بوعده كان سلوكه عاديا وبهيجا، وكان بينهما حديث جاد مهم، ثم كان ضروريا أن يذهب زوجى إلى مخبر الخبير في اليوم التالي كي يري تجاربه.

أكل الغذاء في مقهي رويال وحده، ثم ذهب يتمشي في بوا، ثم زار مدام أوليفيرا في بيتها في باسي، وكان هناك طبيعياً تماماً، ثم غادر منزلها في الساعة السادسة ولم يعرف أحد أين أكل عشاءه، ربما في أحد المطاعم وحده!

وصل الفندق حوالي الساعة الحادية عشرة، وذهب إلى غرفته بعد أن سأل إن كانت قد وصلته أية رسائل، ثم في صباح اليوم التالى خرج من الفندق ماشيا ولم يشاهد بعدها!

- متى غادر الفندق؟ في الساعة المعتادة لكي يلتزم بموعده فى مختبر الخبير بورجونوا؟

- لا نعرف على وجه الدقة، لم يره أحد وهويغادر الفندق، لكن طعام الإفطار لم يقدم له إذن فقد خرج مبكرا..

- أليس يجوز أنه خرج مرة أخرى في الليلة التي عاد فيها؟

- لا أظن، لقد ظهر من سريره أنه نام عليه، ناهيك أن موظف الفندق لابد أن يلمح أي زبون يخرج في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- تلك مجرد ملاحظة يا مدام، لعلنا نعتمد الرأى القائل بأنه خرج مبكرا، وهذا فيه طمأنينة من جهة واحدة: أنه لم يقع ضحية قطاع الطرق في باريس، لكن هل ترك خلفه أمتعته كلها؟

بدت السيدة هاليدى كأنها كرهت الجواب لكنها قالت أخيرا:

- لابد أنه أخد معه حقيبة الأوراق الصغيرة.

قال بواروهوشارد في برهة تفكير عميق:

- عجبا! أين كان ذلك المساء؟ لوأجيب هذا السؤال لكشفنا أشياء كثيرة، من

الذين قابلهم ذلك المساء؟ هنا يكمن الغموض، ليس على أن أقبل رأي الشرطة، فهم - غالبا - يبحثون عن المرأة، لكن شيئا ما قد وقع في تلك الليلة فغير زوجك برنامجه.. قولي لي: حين سأل عن الرسائل حين عودته إلى الفندق ألم يستلم رسالة؟

- واحدة فقط، الرسالة التي كتبتها له يوم سافر من إنجلترا.

ظل بوارو في تفكيره لحظات، ثم نهض فجأة وانتصب قائلا:

- حسناً يا مدام، السر في باريس، ولكي نجد الحل لا بد من السفر إلى باريس، سوف أذهب أنا هناك.

- لقد انقضى زمن طويل منذ ذلك يا سيد بوارو!

- نعم، لكن ينبغي أن نبحث هناك.

وقام إلى الباب مغادراً لكنه التفت بعدما أمسك مقبض الباب قائلاً:

- ألا تذكرين يا مدام أن زوجك ذكر كلمة الأربعة الكبار؟

- الأربعة الكبار.. الأربعة الكبار.. كلا لا أذكر



الفصل السادس

بدأنا صباح اليوم التالي رحلتنا باتجاه باريس، و قال لي بوارو بكآبة:

- الأربعة الكبار يدفعونني إلى العمل دفعا، أصعد و أنزل في كل مكان مثل صديقنا القديم صائد الثعالب.

كان يقصد جيرود أكثر رجال الأمن شهرة في فرنسا والذي قابله أكثر من مرة، فقلت:

- ربما تقابله في باريس!

تجهم وجه بواروثم قال:

- أرجوالله خالصا ألا أنعم برؤيته، فأنا لم أكن على وفاق مع ذلك الرجل وهولا يحبني!

- ولكن مهمتك يا بواروشاقة إذ تبحث عن رجل إنكليزي مجهول مضى على اختفائه نحوشهرين.

- بالتأكيد يا صديقي، إنها مهمة صعبة جداً! لكنك لا تعرف جيداً أن بواروجل يعشق المغامرة ويهوى الصعاب ويستمتع بحلها!

- هل تظن أن الأربعة الكبار هم الذين اختطفوه؟

- نعم.

كان ضرورياً أن نزور الأماكن ونتأكد من المعلومات والتحقيقات القديمة، لكننا لم نستطع الزيادة على ما أخبرتنا به مدام هاليدي.

بواروالتقى الخبير بورجونوا مطولاً من أجل معرفة أي شيء عن برنامج هاليدي لقضاء ذاك المساء المشؤوم لكن دون جدوى.

المحطة الثانية هي مدام أوليفير..

كان المكان مثيرا، شعرت بإحساس غريب يسيطر عليّ ونحن نصعد عتبات

قصرها الجميل في باسي، وقد أصابني ذهول أن امرأة تصل إلى هذا الحد البعيد من العلوم البحتة، كنت أحسب أن هذا الميدان حكر على الرجال، وأن هذا الإنجاز العلمي لا يتقنه إلا عقول الرجال.

فتح الباب خادم فتى صغير لم يتجاوز السابعة عشرة فذكرت صورة مساعد الكاهن من طريقته وحركاته التي تشبه الطقوس الدينية الكهنوتية.

هذه المقابلة تمت بعد جهد كبير لتثبيت موعد مع مدام أوليفير ؛التي لا تكاد تستقبل أحداً، فهي في شغل دائم بحثاً وتجارب طوال اليوم.

دخلنا القصر وسرنا نحوصالة صغيرة، وفي الحال جاءت سيدة القصر تستقبلنا.. طويلة، فارعة الطول، عليها رداء أبيض طويل أضفى عليها بهاء ومهابة، وكانت تعتمر بقلنسوة ممرضة.

كان وجهها يميل إلى الطول وفيه شحوب مميز، عيناها سوداوان بنظرات ثاقبة تشتعل نزقا وحدة.

بدت عندئذ كأنها قديسة أتت من التاريخ لا امرأة فرنسية عصرية، وكان أحد خديها ذا أثر من جرح أوحرق فذكرت ذاك الحادث الذي أدى إلى مقتل زوجها واثنين من العاملين معه اثر انفجار في مختبره قبل ثلاثة أعوام وقد أصيبت هي بحروق بالغة، ومنذ ذلك الحين اعتزلت الناس وانصرفت لأبحاثها العلمية بطاقة عجيبة وعزيمة ملتهبة.

كان استقبالها مؤدباً وفاتراً بعض الفتور، ثم قالت بوقار:

- قابلني رجال الشرطة عديدا أيها السيدان، ويبدوأنني لا أستطيع لكما عونا ؛لأن ليس عندي غير هذا.

- مدام أوليفير، ربما أسألك أسئلة مختلفة تماماً، ولكي لا نضيع الوقت دعيني أسأل هذا السؤال: فيم كنت تتحدثين أنت والسيد هاليدي؟

تفاجأت من سؤاله:

- في عملي قطعا وفي عمله كذلك.

- هل خاض نظرياته التي كانت ضمن بحثه الذي قدمه أمام الجمعية

البريطانية أخيرا؟

- قطعاً، هذا كان أساس حديثنا.
- كانت أفكاره خيالاً أليس كذلك؟
- كثير من الناس يظنون ذلك لكني لا أوافقهم.
- إذن فأنت تعدينها قابلة للتطبيق..
- حتماً، حتماً، وبصورة نموذجية وهذا هومحور أبحاثي التي أعكف عليها لأنجزها مع اختلاف في الطريقة، ذات مرة كنت أعالج أشعة جاما بمادة تدعى (راديوم سي) وهي عنصر غازي ناتج عن الراديوم فرأيت نتيجة عجباً أثارت اهتمامي، وهي في حقيقتها تتعلق بالطبيعة الفعلية للقوة التي نسميها القوة المغناطيسية، لكن الوقت لم يحن لإعلان أبحاثي هذه على الملأ. ولقد أفدت من السيد هاليدي ووجهات نظره التي أثارت اهتمامي كثيراً.

هز بواروراسه موافقا ثم سألها سؤالاً أثار دهشتي:

- مدام أوليفير أين تباحثتما؟ هنا في هذا المكان؟
- كلا يا سيد بواروبل في المختبر
- هلا نظرت إلى المكان؟
- بالتأكيد، تفضل

وسارت أمامنا إلى الباب الذي دخلت منه، حيث عبرنا ممراً قصيراً يؤدي إلى المختبر الكبير الذي كان يمتلئ بالأدوات المخبرية والأكواب الزجاجية والأجهزة التي لا أستطيع حفظ أسمائها، وكان فيه شخصان منشغلان سمتهما مدام أوليفير لنا:

- الآنسة كلودي إحدى مساعداتي القديرات..

انحنت لنا، كانت فتاة طويلة شابة ذات وجه حاد..

- السيد هنري: صديق قديم ثقة

كان شاباً قصيراً أسمر، انحنى لنا باحترام كان بوارويستطلع المكان بعينيه فرأى بابين آخرين للمختبر

يوصل أحدهما إلى حديقة القصر الخلفية، والآخر إلى غرفة أبحاث أخرى صغيرة
أعرب بواروعن شكره لمدام أوليفير وتساءل وهويعود إلى الصالون:
- مدام، هل كنتما وحدكما أثناء اللقاء؟
- نعم، مساعداي كانا في غرفة الأبحاث الصغيرة
- وهل أمكنهما الاستماع إلى حديثكما هما أوغيرهما؟
- لا أظن، ذلك حتما غير جائز، الأبواب كلها كانت مغلقة
- ربما يختبئ شخص ما في هذا المكان
- في الزاوية هناك خزانة كبيرة لكنها فكرة سخيفة
- حسناً، بقي لدي سؤال: هل ذكر السيد هاليدي أية ملاحظة عن برنامجه ذاك المساء؟
- بتاتا، لم يذكر شيئاً من هذا
قام بواروشاكراً يودعها بلطف واحترام، واعتذر إن كان قد أحدث إزعاجا مفاجئا بما يلي عليه واجبه نحوعمله الشاق المضني
كنا نهم بالخروج من الصالة عندما دخلت من باب القصر امرأة صعدت بسرعة نحوالدرج دون أن تبدي لنا اهتماما، وقد دل ثوبها الأسود على أنها أرملة فرنسية أثارت طريقة دخول هذه المرأة إلى المنزل اهتمام بواروفأبدى استغراباً:
- امرأة غير طبيعية، تثير التساؤل والعجب!
- مدام أوليفير؟ نعم إنها..
- كلا يا هيستنجز لا أعني مدام أوليفير، تلك المرأة نادرة ذات شخصية فذة ربما يفتقد العالم أمثالها، لكني أعني هذه المرأة التي رأيناها على الدرج
قلت بدهشة:
- لكنني لم أستطع رؤية وجهها ولا أظنك كنت قادرا أن تستبين ملامحها، إنها لم تلتفت إلينا...
بوارو-بهدوء -: هذا هوالسبب الذي جعلني أقول ذلك.. امرأة تدخل البيت كأنه بيتها، معها مفتاح الباب، وتركض بسرعة نحوأعلى الدرج دون أن تنتبه لزائرين

غريبين في البيت. هذا أمر غير طبيعي يدعوإلى الإثارة والدهشة،أمر غريب حقا!

امتدت يد بوارونحوي بقوة وجذبني بسرعة إلى الخلف في وقت مناسب تماما فقد انهالت شجرة سروضخمة كانت تنتصب في صف الأشجار الذي يحادي الممر الذي كنا نسير فيه وكادت تهوي على رأسينا، جمدنا في المكان وكلنا رعب ودهشة، كان وجه بواروشاحبا ثم قال بانزعاج:

- كانت قريبة منا جدا ذلك ،عمل أحمق طائش، لم أكن أتوقعه يوما لكن عيني كانت بالمرصاد، كاد بوارو يختفي من الوجود فتحل عندئذ في العالم كارثة مفجعه! وأنت أيضا يا صديقي، لكن موتك لن يكون مصابا وطنيا على كل حال.

فقلت ببرود:

- شكراً على هذا التقدير، دعنا من هذه الثرثرة الجوفاء، ماذا تريد أن تفعل الآن؟

- الآن، نعم نعم، يجب أن نفكر لندرب خلايانا الرمادية، هل كان السيد هاليدي في باريس حقا؟ نعم ؛ لأن الخبير بورجونوا الذي يعرفه رآه وكلمه صباح الجمعة، وكانت آخر مرة شوهد فيها الساعة الحادية عشر من مساء الجمعة، لكن هل شوهد وقتئذ حقا؟ ومن ذا رآه؟

- حمال الفندق..

- حمال المناوبة الليلية الذي لم ير هاليدي من قبل؟ انه رأى رجلاً يشبه هاليدي تماما، إنني أثق بقدرة رقم «٤» على تقمص هذا الدور.. يسأل عن الرسائل، يصعد إلى أعلى يحمل حقيبة أوراق صغيرة، ثم ينسل في صباح اليوم التالي باكراً، لم يشاهد أحد السيد هاليدي مساء يوم الجمعة ؛ لأنه كان قد وقع في أيدي أعدائه!

هل كان الرجل الذي التقته مدام أوليفير هوهاليدي؟ نعم رغم أنها لم تكن تعرفه من قبل، لأنه من الصعب على الذي ينتحل شخصيته أن يخدعها في شأنها العلمي المتخصص، جاء هنا وقابلها ثم غادر، فماذا بعد ذلك؟

أمسك بواروبذراعي وعاد أدراجه إلى الخلف..

- الآن تخيل أن هذا اليوم هوالذي أعقب يوم اختفائه، دعنا نتتبع أثر

الأقدام، أنت تحب آثار الأقدام، أليس كذلك؟ انظر هنا، هذه قدم رجل تتجه نحواليمين تتبعه قدم صغيرة مسرعة، قدم امرأة شابة تلبس حجاب الأرملة تلحقه وتناديه: «سيدي، مدام أوليفير تريد أن تتحدث معك»، يتوقف فيدور، تقوده المرأة الشابة، لكن، إلى أين؟

لم تكن مصادفة أن المكان الذي لحقت به فيه هوالذي يتفرع منه ممر آخر، قالت له: «هذه الطريق أقصر يا سيدي».

وعلى اليمين حديقة بيت مدام أوليفير، وعلى اليسار حديقة منزل الجيران، ومن تلك الحديقة سقطت شجرة.. بابا الحديقتين يفتحان على الممر.. الكمين هناك: رجال يخرجون ويغلبونه ويحملونه إلى الفيلا الغريبة!

صرخت مذهولا:

- تريد مقابلة مدام أوليفير مرة أخرى؟

تبسم بوارو باستخفاف:

- كلا يا هيستنجز، بل مقابلة المرأة التي رأيناها على الدرج

- من تراها تكون قريبة مدام أوليفير؟

- الغالب أنها سكرتيرتها، وربما وظفت من زمن قريب

- هلا أخبرتني باسم الأرملة التي دخلت قبل قليل؟

- مدام فيرونوا سكرتيرة المدام؟

- نعم هي، هلا طلبت منها أن تظهر قليلاً لنحدثها؟

توارى الفتى قليلاً ثم أتى مرة أخرى

- عذرا، مدام فيرونوا ليست هنا!

- بل هنا، لكن أخبرها اسمي هيركيول بواروو وقل لها: من الضروري أن أراها الآن ؛ إني ذاهب إلى مدير الشرطة حالا..

دخل الرسول مرة أخرى، وبعد برهة جاءت المرأة ودخلت المجلس فتبعناها، أماطت حجابها فكشف وجها نعرفه: إنها الخصم القديم - الكونتيسة الروسية - العقل المدبر لعملية سرقة المجوهرات الكبيرة في لندن، قالت:

- أصارحكما، عندما نظرت إليكما في الصالة توقعت العاقبة الأسوأ!
- عزيزتي الكونتيسة روساكوف...
هزت رأسها معترضة:
- الآن أنا إنز فيرونوا، إسبانية متزوجة من فرنسي.. ماذا تريد مني يا سيد بوارو؟ قد سبق أن اصطدتني في لندن والآن تلاحقني في باريس؟ هل ستخبر مدام أوليفير؟ نحن الروس مساكين لنا حق العيش أيضا!
- الأمر شديد الخطورة، أعتزم أن أدخل بيت الجيران وأحرر السيد هاليدي إن كان حياً، أنا عرفت كل شيء..
لاحظت شحوباً قاتلاً على وجهها، عصف بها ذهول قوي لكنها ملكت نفسها بعزم:
- انه ما زال حياً لكنه ليس هنا، ما قولك أن نبرم بيننا عهدا: لي الحرية ولك السيد هاليدي حيا في صحة جيدة؟
- موافق، كنت أوشك أن أقول هذا لكن هناك سؤال: هل تشتغلين للأربعة الكبار يا مدام؟
رأيت الشحوب على وجهها مرة أخرى، لكنها تجاهلت سؤاله وقالت:
- هل تأذن لي بالاتصال بالهاتف؟
أجرت مكالمة هاتفية حيث السيد هاليدي محبوس، قالت:
- هل أنت أندريه؟ أنا إنز.. إن البلجيكي ذا القامة القصيرة قد عرف كل شيء، أرسل هاليدي إلى الفندق ثم غادر المكان
ردت السماعة وجاءت إلينا تبتسم فقال لها بوارو:
- سترافقيننا إلى الفندق يا مدام
- توقعت طلبك، أنا جاهزة
أحضرت سيارة أجرة وانطلقنا معا إلى الفندق، كنت أرى القلق على وجه بوارو، وكان الاضطراب والتوتر يسيطران على الجووالحذر يشمل الجميع، لكن الأمر تم سهلا، فحين وصلنا إلى ساحة الفندق جاء حمّال - وقد عرف بوارو- فقال مستعجلاً:

- الآن وصل رجل مريض وسأل عنك، إنه في غرفتك، أما ممرضته فقد خرجت سريعا دون انتظار..

- لا عليك، انه صديقي

وصعدنا مسرعين إلى الغرفة فوجدنا شابا هزيلا منهكا تظهر عليه علامات الإعياء والإرهاق يجلس عند الشباك خائر القوى مبدد الحول لا يستطيع كلاما ولا حركة!

سأله بوارو:

- أنت السيد جن هاليدي؟

هز رأسه..

- أرني ذراعك اليسرى..

كان تحت كوعه الأيسر شامة..

كأس من الليمون المثلج أنعش هاليدي قليلاً .. همس:

- يا إلهي.. كنت في جحيم!.. هؤلاء زمرة من الشياطين!.. أين زوجتي؟ لقد أخبروني أنها تظن..؟

- كلا، هي لا تظن ذلك البتة، إنها تثق بك كثيراً، ما زالت تنتظرك

- أشكر الله، لا أصدق أني حر طليق!

- الآن أنت معافى يا سيدي، هلا قصصت القصة من أولها؟

أصابت الرجل حالة ذعر وارتباك وتغير وجهه ثم قال:

- إنني لا أذكر شيئا

- ماذا؟

- هل سمعت بالأربعة الكبار؟

- قليلاً عنهم..

- أنت لا تعرف ما أعرفه، إن لديهم قوة غير محدودة، وإذا بقيت صامتا فسوف أظل في أمان وإذا ما نطقت بكلمة فلن أشعر بالأمان لحظة واحدة، ولن يشعر بالأمن أقربائي وكل أعزائي، فلا تحاول الجدال معي ؛ أنا على يقين من أمر واحد: إنني لا أذكر شيئا!

ثم نهض وخرج من الغرفة في حين جعل بوارووينظر إليه مذهولا مدهشا كأنه ذاق مرارة الهزيمة

مرة أخرى حاول أن ينطق بعض الكلام بغيظ واضح لكنها كانت مكتومة لا تكاد تسمع:

- إذن فالمسألة هكذا؟ لقد ربح الأربعة الكبار مرة أخرى.. ما هذه الورقة بيدك يا هيستنجز ؟

- هذه ورقة كتبت عليها روساكوف قبل أن تغادر.

أخذها وقرأها:

«وداعا. «IV انه رقم يرمز إلى رقم «٤» باللاتينية، إنني أعجب يا هيستنجز، إنني أعجب!



الفصل السابع

كان الأنين المبعوث في أذني من غرفة جاري في الفندق قد أرق جفني فلم أنم، وكانت الشكوى المتقطعة التي أسمعها طوال الليل تحدث في نفسي أثرا عميقا يطرد عني النعاس ويملأ ليلتي أسفا وحزنا، إنها غرفة هاليدي التي نام فيها ليلة إطلاقه، بدا واضحا أن تجربته القاسية قد حطمت أعصابه وأخذت منه مأخذا عظيما!

وعجزنا في الصباح أن ننتزع من هاليدي شيئا، كان خائفا من انتقام هؤلاء الاشرار إذا تكلم، وكان متأكدا من القوة الهائلة التي يملكها الأربعة الكبار حتى بات يرفض النقاش في أمرهم.

أكل غذاءه ثم سافر إلى انكلترا حيث زوجته وطفلته الصغيرة.

وجدت نفسي متحمسا للأحداث، ورأيت أن عليّ أن أواجه بواروممن قريب أوبعيد، لكن هدوءه الذي أزعجني جعلني أقول:

- أرجوك يا بوارودعنا نفعل شيئا!

- حسنا يا صديقي فماذا نفعل؟

- نخبرهم عن الأربعة الكبار

- نخبر من؟

- الشرطة

تبسم بوارو ببرود ثم قال:

- انهم لن يصدقونا، سيتهموننا بالجنون؛ لأننا لا نملك دليلاً نستدل به، دعنا ننتظر..

- ماذا ننتظر؟

- ننتظرهم حتى يقوموا بتجربة، انظر إلى لعبة الملاكمة، اللعبة المفضلة

لديكم في انكلترا: إذا لم يتحرك أحدهما فلا بد أن يتحرك الآخر ويسمح أحدهم لخصمه بالهجوم ليعرف طريقته وأسلوبه، ونحن الآن ندع الخصم يهجم..

أوجست خوفا وريبة من كلامه:

- هل تظن أنهم سيفعلون؟

- بلا شك، لقد حاولوا إخراجي من إنكلترا. ثم جريمة دارتمور التي ترمز لها معان مقصودة، ثم دخلنا وأنقذنا ضحيتهم من المقصلة، وأمس تدخلنا مرة أخرى في خططهم، انهم لن يقفوا حتما ساكتين إزاء كل ما جر.

كنت في تفكيري أتأول كلمته حين طرق الباب، ومن غير استئذان دخل رجل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه وجلس.

كان رجلاً طويلا نحيفا بشرته شاحبة أنفه معوج قليلاً ، كان يلبس معطفا مزرّرًا حتى ذقنه وقبعة ناعمة تغطي عينيه. قال بصوت نام:

- عذرا أيها السيدان، قد دخلت دخولا غير لائق، لكن مهمتي خطيرة!

وجلس وهويبتسم بخبث، فأثارني هذا الموقف وكدت أثب من مكاني لولا أن بوارومنعني بإشارة من يده، ثم سأل هذا الزائر الثقيل:

- كان دخولك فظا كما قلت، فما هي مهمتك؟

- عزيزي السيد بوارو، أريد أن أخبرك بصراحة، أنت تزعج أصحابي

- كيف؟

- أنت تعرف كما أعرف يا سيد بوارو

- ومن هم أصدقاؤك هؤلاء؟

لم يجبه بل أدخل يده في جيبه فأخرج علبة لفائف سحب منها أربعا ونقرها على الطاولة ثم أعادها..

- ها ها.. نعم، فالمسألة هكذا إذن؟ وماذا يقول أصدقاؤك؟

- يقولون: «عليك أن تعمل قدراتك الخارقة في غير هذا الشأن وأن تعود إلى حل مشاكل نساء المجتمع اللندني ».

- يبدوأنه برنامج سلمي! وإذا لم أوافق؟

حرك يده حركة فيها معنى مقصود واضح:

- طبعا ستأسف وتندم كثيرا، وسوف يحزن كل أصحاب السيد هيركيول بواروالعظيم حزنا لا ينفعهم لأن الحزن - مهما اشتد - لا يمكن أن يعيد للأموات الحياة!

- حسنا، هب أني موافق

- إذن أدفع لك تعويضا..

وأخرج من جيبه المحفظة وأخرج منها عشرة أوراق كل واحدة من فئة العشرة آلاف فرنك ألقي بها إلى الطاولة ثم قال:

- هذا ضمان حسن النية فحسب، سوف تعطى عشرة أضعاف هذا!

أدركت أن الخصم بين أيدينا وأن الفرصة مناسبة لإخبار الشرطة من أجل أكبر انتصار في هذا الزمان، كان قلبي ينبض بقوة، شعرت بالهيجان ولم أعد أطيق انتظارا، وصرخت بعنف وأنا أقفز من مكاني:

- يا إلهي! هل تظن..؟

لكن بواروأقعدني بقوة وقال بحزم:

- اجلس يا هيستنجز، اجلس مكانك.. ما رأيك يا سيد لواتصلت الآن بالشرطة وصديقي يمنعك من الهروب؟

- على كل حال افعل إن كنت تظنه من الحكمة..

- صرخت: لا أستطيع أن أحتمل أكثر.. انظر..

نهضت بسرعة وخطوت خطوات كبيرة إلى الباب وألصقت ظهري به، همس بوارو:

يبدوأن هذه هي الطريقة المثلى.

فقال زائرنا وهويبتسم:

- لكنك لا تثق بها، أليس كذلك؟

وقلت بإصرار وعزم:

- هيا يا بوارولا تتأخر!

رفع بواروالسماعة فقفز الرجل قفزة مفزعة تشبه قفزة القط لكنها إلي، كنت على أهبة له فالتحمنا بعراك شديد أشبه بالمصارعة، وشعرت فجأة أنه ضعيف جعل يهوي بين يدي فزادني همة حتى طرحته أرضا وشعرت بنشوة النصر، وأخذ خيالي يطوف في نهاية مسرحية..

ثم كان شيء غير عادي: وجدتني مقذوفا ورأسي يضرب بالحائط، نهضت مدهوشا أبحث عن خصمي الذي اختفى، ركضت نحوالباب فوجدته مقفلا علي، أسرعت إلى الهاتف:

- مكتب الاستقبال؟ أمسكوا الرجل قبل أن يخرج، رجل طويل يلبس معطفا طويلا مزررا وقبعة ناعمة، انه مطلوب للشرطة.

مضت بضع دقائق قبل أن أسمع صوت المفتاح في الباب، كان مدير الفندق، وصرخت صرخة مجنون:

- الرجل هل أمسكتموه؟
- لا يا سيدي لم نر أحداً..
- كيف وقد مر بك الآن؟
- لا يمر بي أحد بتاتا..
- بوارو: أظن أنكم مررتم بشخص ما ربما يكون موظفا هنا؟
- نادل يحمل طبقا لا غير يا سيد
- نعم، هكذا إذن..

كانت الدهشة تملأ جوالفندق والحيرة تراها في وجوه المسئولين وخاض الناس في شك وتكذيب، لكن المسألة قد فهمها بواروفقال بثقة:

- من أجل هذا يلبس معطفا مزررا حتى ذقنه

همست بخجل وأنا أحس بالهزيمة:

- كنت أظن أني أسقطته أرضا!

- نعم كانت خدعة يابانية، لا تثريب عليك يا صديقي، كل شيء سار حسب الخطة، خطتهم قطعا، وهذا ما كنت أريده.

صرخت حين رأيت محفظة على الأرض، التقطتها بلهفة، إنها من أثر المعركة، لا بد أنها سقطت من جيب زائرنا العزيز!

كان فيها فاتورة باسم السيد فليكس لون، وورقة أخرى صغيرة من دفتر الملاحظات كتب عليها بخط غير واضح بالرصاص، كانت هذه الكلمات مثيرة لنا:

(اجتماع المجلس القادم يوم الجمعة، الساعة ١١ صباحا: ٣٤ - شارع إيشيلير)

وإمضاء رقم «٤» بخط كبير

وكنا في يوم الجمعة، والساعة ١٠,٣٠، صرخت بذهول:

- يا إلهي إنها فرصة ثمينة، الأمور الآن بأيدينا، يجب أن نبدأ من هذه اللحظة.. لعل الحظ في هذه المرة كان لنا

همس بواروكأنما يحدث نفسه:

- انه جاء من أجل ذلك، أكاد أفهم كل شيء..

- ماذا فهمت؟ يا بوارومتى ستكف عن محادثة نفسك؟

نظر بواروإلي نظرة إشفاق ثم ابتسم:

«- قالت العنكبوت للذبابة:هلا دخلت بيتي يا عزيزتي؟» هذا نشيد الأطفال عندكم يا معشر الانكليز، أليس كذلك؟ الحذر الحذر يا صديقي، إنهم ماكرون دهاة ولكن ليس بدهاء هيركيول بوارو

- لا أفهم شيئا مما تقوله يا بوارو!

- ما زلت أسائل نفسي عن زيارة الصباح هذه، هل كانوا يأملون بالنجاح في رشوتي أم هي زيارة ترهيب لأخافهم وأترك مهمتي؟ لكني الآن فهمت الحقيقة، إنها خطة ماكرة بلا شك ومحكمة في الوقت نفسه، الظاهر هوالرشوة أوالترهيب، والمعركة كانت من أجل أن يكون سقوط المحفظة أمراً محتوماً وأخيرا المصيدة: شارع إيشيلير، الساعة ١١ صباحاً، لكن القبض على هيركيول بواروليس سهلا، فليعلموا!

عرفت أني ساذج وبليد فقلت:

- يا إلهي! إنهم يعلمّون الشياطين المكر والدهاء

- لكن فيها لغزا آخر: الوقت: لماذا لم يختاروا الليل؟ أليس الليل أحسن لهم؟ لماذا الساعة الحادية عشر صباحا؟ هل في هذا الصباح كيد يدبرونه لا يريدون أن يعرفه بوارو؟

كان بواروفي نوبة من الحيرة والقلق، ثم هز رأسه وقال:

- إنني ماكث هنا ولن أغادر هذا الصباح، دعنا ننتظر، سوف نرى

كان الزمن يمر بطيئا ثقيلا كأن الساعة لا تتحرك، كان في رأسي خيال كثير وحوادث، كنت أشعر أحيانا بالعجز والضعف عن المواجهة، وأحيانا أخرى بالإخفاق في أن أفهم ما يجري

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ولم يحدث أي جديد..

طرق الخادم الباب وسلم ورقة صغيرة زرقاء اللون لبوارو.. إنها من مدام أوليفير تطلب منه الحضور فورا..

ونهضنا مسرعين إلى مدام أوليفير دون تأخير، واستقبلتنا في المجلس الذي قعدنا فيه أمس، ووجدتني في دهشة مرة أخرى من شخصية هذه المرأة القوية صاحبة الوجه الذي يشبه وجه الراهبة، إنها سدت الخلل الذي كان وراء مدام كوري وبيكريل، ذات هالة علمية مذهلة وعين متوقدة تكاد تسيطر على محدثها بنظرة ثابتة من طرفها، بادرت بالقول:

- أمس قابلتماني من أجل هاليدي وبعد انتهاء المقابلة علمت أنكما دعوتما إينز سكرتيرتي، لكن دهشتي أنها غادرت القصر معكما ولم ترجع حتى الآن!

- هذه هي القضية أم عندك أمر آخر؟

- كلا، بل الخطير أن اقتحاماً تم الليلة الماضية للمختبر واختفت أوراق ومذكرات قيمة، ولقد حاول اللصوص سرقة أي شيء آخر أشد خطرا، لكن الخزانة - من حسن الحظ - كانت مقفلة بإحكام ففشلوا أن يفتحوها!

- يجب أن علمي الحقيقة يا مدام: إن سكرتيرتك مدام فيرونوا هي الكونتيسة روساكوف اللصة المحتالة المشهورة، وهي المسئولة عن اختفاء هاليدي، لكن كم مضى عليها وهي تعمل عندكم؟

- منذ خمسة شهور تقريبا، ولكن هذا يدعوإلى الذهول!
- إنما هي الحقيقة، هل كان العثور على الأوراق سهلا أم أنه عمل يدل على معرفة سابقة؟
- الأمر العجيب أن اللصوص كانوا يعرفون بغيتهم تماما، هل تظن أن مدام إينز..؟
- نعم لا شك أنها كانت الدليل، لكن ما هوالشيء الثمين الذي فشل اللصوص في سرقته؟ جواهر؟
هزت رأسها وهي تبتسم وقالت بصوت خافت:
- بل أثمن من الجواهر كثيرا يا سيد بوارو.. راديوم!
- راديوم؟
- نعم، إنني الآن اقترب من النهاية القصوى في تجاربي، وعندي قدر قليل من الراديوم، وقد قدم لي قدر أكبر من أجل تمام أبحاثي، وهذا القدر لوكان ضئيلا فإنه بالنسبة إلى المخزون العالمي قدر عظيم تساوي قيمته ملايين الدولارات!
- وأين هوالآن؟
- في الحقيبة الرصاصية من الخزانة المحكمة التي تبدوعتيقة لكنها - بصراحة - انتصار فني في حقل الصناعة، وهي جعلت اللصوص يفشلون!
- كم يصح أن تحفظي هذا القدر من الراديوم.
- لمدة يومين آخرين غير هذا اليوم ثم تنتهي تجاربي
- هل تفهم مدام فيرونوا هذا؟
- نعم
- آها، إذن سيعود أصحابنا مرة أخرى، سوف أحمي ثروتك من الراديوم لكن لا تخبري أحدا.. هل عندك مفتاح للباب الذي يؤدي إلى المختبر من الحديقة؟
- نعم، ها هو ذا، عندي نسخة أخرى، وهذا مفتاح الباب الذي يؤدي إلى الممر الذي يطل على فيلا الجيران
- شكراً لك يا مدام، اذهبي إلى النوم وأنت مطمئنة كالعادة، لا تقولي شيئا

لمساعديك لا سيما السكرتيرة، دعي الأمر لي

كان بوارومتهلل الوجه وهويغادر بيت مدام أوليفير، وكان يفرك يديه فرحة بنصر مرتقب، كانت الأمور كأنما تشير إلى الاحسن، سألته:

- ماذا ستفعل الآن يا بوارو؟
- الآن يا هيستنجز سوف نغادر باريس إلى إنكلترا
- ماذا؟
- كما أقول لك، سوف نحزم أمتعتنا ونأكل غداءنا ونذهب بالسيارة إلى جيردونورد..
- والراديوم؟
- أقول: إننا سوف نسافر إلى إنكلترا، ولم أقل: إننا سنصل هناك..

أعمل دماغك مرة يا هيسّتنجز، ألا تدري أنك مراقب؟ يجب أن يطمئنوا أننا ذاهبون إلى إنكلترا، ولن يطمئنوا حتى يرونا نركب القطار وننطلق..

- وننسل من القطار في آخر لحظة؟
- كلا يا هيستنجز، بل لا يرضيهم أقل من المغادرة التي لا خداع فيها
- لكن القطار لا يتوقف إلا عند كاليه
- يقف في حالة واحد: إذا دفعنا له
- سوف يرفضون ولا يقبلون، كيف يقف قطار سريع؟
- هناك حيلة، ما هي غرامة إساءة استعمال المقبض الصغير في القطار؟ مائة فرنك؟
- هل ستمسك مقبض الباب وتسحبه أنت يا بوارو؟
- بل صديقي بيير كومبوا سيفعله، وسوف يثير ضجة كبيرة مع الحارس فيكون مشهدا يستحوذ على انتباه المسافرين فننسل في أثناء ذلك خارجين!

خطة بواروسارت كما رسم لها بعد أن قبل صديق بواروالقديم - الذي كان على صلة ببواروومعرفة بأسلوبه ومنهاجه في العمل - واستطاع أن يصطنع ضجة كبيرة كأنها قنبلة دخانية سترت فرارنا من القطار دون أن يحس بنا أحد

وتنكرنا تماما بعدما اشترى بواروما يلزم ذلك ووضعه في حقيبة صغيرة، وأصبح من غير السهل أن يعرفنا أحد بعد أن رأيت مشهدنا يدل على اثنين متسكعين يلبس كلاهما قميصا ضيقا قذرا ذا ألون فاقعة تدعوإلى السخرية!

أكلنا غداءنا في أحد مطاعم باريس المغمورة وانتظرنا مغيب الشمس والليل يحل على شوارع باريس وأزقتها، وسيطر الظلام وأخذت مصابيح البيوت والحوانيت تقطع الظلام الدامس على جوانب المكان

ووجدنا أنفسنا قريبين من منزل مدام أوليفير، نظرنا إلى أعلى المكان وأسفله، لم نر أحداً، تسللنا إلى الممر المغطى بالشجر الموحش المهجور، كنا متأكدين أن لا أحد يتعقبنا لكن همسات الريح البارد الذي كان يلامس أوراق الشجر فيها نسمات الذعر!

ربما نكون مقدمين على مواجهة مع هؤلاء اللصوص الخطرين الذين ألفوا الموت فضلا عن القسوة والقتل لأتفه الأسباب، همس بوارو:

- لا أظن أنهم قدموا إلى المكان حتى هذه اللحظة، وربما لا يأتون اليوم، إنهم يعلمون أن لديهم ليلتين حتى يسرقوا الراديوم ليس أبعد

أدار بواروالمفتاح في القفل بحذر شديد ودخلنا حديقة البين بخفة، لكن وجدنا أنفسنا في فك الذئب المرعب فوقعنا في الفخ..

عشرة رجال كانوا يحيطون في الخفاء كالسوار، كانت المقاومة لا تنفع، أوثقونا ثم حمل أحدنا كما تحمل حزمة القش، فتح باب المختبر وزجونا فيه، وانحنى أحدهم أمام الخزانة الكبيرة وفتح بابها

شعرت برعدة خوف قاتلة تسري في عروقي وأيقنت أننا سنوضع في هذه الخزانة ولكن باب الخزانة ولدهشتي الشديدة انفتح عن درجات تنزل في ممر سري إلى الأسفل!

دفعنا على درجات بقوة إلى الأسفل، ثم غرفة سرية مرعبة وهناك رأينا قامة سوداء مهيبة: امرأة طويلة تلبس الثوب الأسود الطويل وتغطي وجهها بقناع من المخمل الأسود كذلك، كان واضحا أنها صاحبة السلطة وسيدة الموقف،

ويدل على ذلك إشارتها الصامتة التي يمتثل لها الرجال الاشداء!

قذفنا الرجال على الأرض وتركونا وحدنا مع هذه المخلوقة الخفية خلف القناع الأسود، ولم يخامرني أدنى شك أن هذه المرأة هي رقم «٣» الكبار الأربعة، المرأة الفرنسية المجهولة

جثت على ركبتيها ونزعت الكمامتين عن وجهينا ثم نهضت وانتصبت أمامنا، وبحركة مفاجئة وسريعة نزعت قناعها وكشفت الغموض..

إنها مدام أوليفير!

قالت بتهكم وسخرية:

- سيد بواروالعظيم صاحب الذكاء الخرق، لقد أرسلت إليك تحذيرا صباح أمس لكنك لم تأبه له، وظننت أنك تستطيع مواجهتنا بذكائك الخارق، أليس كذلك؟ لكنك أتيت بقدميك إلى هذا الموضع الذي لا تحسد عليه!

لم يجب بواروولكني رأيت فكه الأسفل يرتخي وهويحدق إليها.. لا شك أن المفاجأة أذهلته، وقالت هي بلطف:

- حسناً هذه هي النهاية، لن نسمح لأحد أن يعترض خططنا، فاطلب طلبك الأخير..

كنت أراقب الموقف ورأيت الموت أمامي، الموت له رائحة تعرفها تملأ المكان لكن القتيل وحده هوالذي يشتم رائحته وذكرت زوجتي وأطفالي.. صور وخيال وشريط من الأحداث يمر سريعا في ذهني المكدود قبل أن أنظر إلى وجه بواروفوجئت بهيئة بواروالهادئة لا تبدوعليه آثار الخوف والفزع ولم يغز الشحوب وجهه كان رائعا حقا،عيناه على مدام أوليفير قال بثبات:

- حسنا أيتها المرأة الفاضلة، إن فيك طبيعة مثيرة للاهتمام لكن الوقت لا يسع لدراستها، لدي طلب بسيط الرجل المدان يسمح له بالتدخين للمرة الأخيرة في جيبي علبة لفائف لوتكرمت بالإذن..

ثم نظر إلى القيد في يديه فضحكت وهي تقول:

- تريدني أن أفك قيدك؟ انك امرؤ ذكي بلا شك، لكني لن أفك قيدك وسأجد

لك لفافة تبغ مدت يدها إلى جيبه وأخرجت علبة اللفائف ثم أمسكت منها واحدة ووضعتها بين شفتيه ونهضت وقالت:

- والآن عود الثقاب أليس كذلك؟

- لا ليس لازما لا أحتاج إليه..

كان في صوته جرس غريب أجفلني وأثار الريبة في نفس مدام أوليفير فارتعدت فيما نطق هوبهدوء:

- لا تتحركيَ سوف تندمين إذا فعلت انتبهي إليّ جيدا! أرجوك أظن أنك تعرفين مادة الكورار «مادة تستخرج من بعض النباتات لتسميم السهام «هنود أمريكا الجنوبية يدهنون بها سهامهم ان خدشا بسيطا بها يعني الموت بعض القبائل يستعملون أنبوب النفخ وهذا ما أملكه لكن على شكل لفافة تبغ ما علي سوى أن أنفخ فيها.. إن هذه اللفافة مدهشة ؛ أنفخ فيها فيخرج سهم دقيق كعظمة السمكة نحوهدفه يطير سريعا كالبرق.. انك حتما لا تريدين الموت يا مدام إذن فعليك أن تحرري صديقي هيستنجز من قيوده.. تعلمين أنني أستطيع أن أدير رأسي في كل الاتجاهات ويداي مقيدتين إياك أن تفكري في الطريق الخطأ، حذار حذار من الخطأ وإن يكن صغيرا!

رعشة رعب سيطرت عليها يداها ترتعدان وجهها مصفر كئيب شفتاها تميلان نحوالزرقة حركاا تنطق بالحسد الأسود ولكنها نفذت أمر بواروبدقة!

ثم جاء صوت بواروبستمر في الأوامر بعد أن أصبحت حرا من قيودي:

- سيد هيستنجز، قيد السيدة بسرعة، أحكم قيدها، تأكد من ذلك

ثم حررت بوارومن قيوده فورا وتلمسنا طريق الخروج فوجدناه مفتوحا وكان جنودها خارج المكان وقبل أن نفر من المكان اتجه بوارونحوالسيدة وأحنى ظهره وقال:

- هيركيول بوارولا يقتل بسهولة يا مدام ليلة طيبة!

وبعد ثلاث دقائق كنا نجتاز المكان مسرعين ومازلت أكذب نفسي أننا عدنا إلى الحياة مرة أخرى ومازلت في ذهول تام ولساني معقود من الانطلاق.. هل

كان حلماً مزعجاً؟

اندفع بوارويثرثر وقد انتابه هيجان مثير يتكلم بمزاج حاد لا يكاد يضبط كلامه:

- أستحق كل الذي قالته لي المرأة افني أحمق ثلاث مرات وأبله وحيوان تعس غبي ستا وثلاثين مرة! ربما أستطيع أن أفخر بنفسي أنني نجوت منهم لكن تقديري كله كان خطأ، لقد نجحوا في خداعي ووقعت في الشرك كما أرادوا!

عرفوا أنني سأواصل حتى النهاية فصنعوا لذلك ما صنعوا الآن أصبح كل شيء واضحا: السهولة التي استسلموا بها وتسليم هاليدي مدام أوليفير كانت هي الروح الحاكمة فيرا روساكوف نائبتها، وقد استطاعت أن تتم أبحاثها بواسطة المعلومات التي أخذ بها من هاليدي!

لقد عرفنا إذن من هورقم «٣».. بها أعظم امرأة في العالم!

الأربعة الكبار جماعة تضم عقل الشرق وعقل الغرب وقوتين أخريين مجهولتين.. يجب أن نعرفهما..

يجب ذلك يا هيستنجز !

سنعود إلى لندن لنبدأ البحث مرة أخرى!

- ألا تريد أن تخبر الشرطة عن مدام أوليفير؟

- لن يصدقونني يا عزيزي هذه المرأة هي رمز فرنسي كما أننا لا نملك دليلا سنكون محظوظين إن

لم تبلغ هي الشرطة عنا

- ماذا؟

- نعم لقد وجدونا في قصرها ليلاً ومعنا مفتاحه ولن يكفي أننا قيدناها وكممناها بشكل مدهش واستنقذنا أرواحنا من مخالب الموت..



الفصل الثامن

بعد تلك المغامرة الرهيبة في فيلا باسي لم نعد نطيق المقام في باريس فانطلقنا مرتحلين إلى انكلترا على عجل، وهناك وجد بوارو كومة من الرسائل بانتظاره، قرأ إحداها والبسمة على وجهه، ثم دفعها إليّ وقال:

- اقرأ هذه الرسالة

كانت الرسالة مذّيلة بإمضاء آبي ريلاند، فذكرت أنه ذاك الرجل الذي وصفه بواروبأنه أغنى رجل في العالم، وكانت تعرب عن قلق ريلاند لأن بواروتخلى عن قضية أمريكا الجنوبية في آخر لحظة، قال بوارو:

- هذه الرسالة تجعلني أبذل مزيداً من التفكير المتواصل العميق، أليس كذلك؟

- لكن من الطبيعي أن يبدي الرجل أسفه، وله الحق أن يغضب

- لا يا هيستنجز، أنت ثقيل الفهم، ألا تذكر كلمات مايرلنج، ذلك الرجل الذي فر إلينا من الموت ووجد الموت في انتظاره عندما قال: رقم «٢» رمزه حرف «$» وعليها خطان علامة الدولار الأمريكي أوشريطان ونجمة، وهكذا نحدس أن يكون أمريكيا وأنه يمثل قوة الثروة، زد عليه أنه عرض عليّ قدراً سخياً من المال من أجل إغرائي بالخروج من إنكلترا، ماذا تفهم من ذلك يا هيستنجز ؟

قلت وأنا أنظر إليه نظرة أبله:

- هل تقصد أنك تشك في آبي ريلاند صاحب الملايين أنه رقم «٢» من الأربعة؟

- قد بدأت تفهمني قليلاً يا هيستنجز . نعم، إني أشك فيه، المشهور عن

ريلاند أنه رجل ثري وقوي لكنه عديم الضمير، رجل يملك كل الثروة وسلطته لا حدود لها لكنه لئيم وغليظ في المعاملة، لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه لأن عنده قوة خارقة!

- متى كنت تجزم بهذا الاعتقاد؟

- إنها فكرة مجردة تجول في خاطري، ليس لدي دليل يثبت هذه الفكرة، لكنني مستعد لأقدم كثيراً كثيراً من أجل معرفة ذلك، وأنا أظن أن النظرية التي تقول أن رقم «٢» هوريلاند سوف تساعدنا على الاقتراب من الهدف

- تستطيع أن تزوره وتعتذر منه

- ربما كان سهلاً أن أفعل ذلك

بعد يومين عاد بواروإلى المنزل وهومصاب بالدهشة والانفعال، ثم أمسك بي بكلتا يديه كما يفعل عادة عند تحمسه وقال:

- يا صديقي، إنها مناسبة مذهلة حقاً ربما لا تتكرر أتت من غير تدبير، لكن فيها خطورة ومغامرة حتى إني أكاد لا أطلب منك المحاولة

- إذا كنت تحاول أن تلقي الروع في صدري فإني أظنك تسير في الاتجاه الخطأ يا بوارو

وبعد أن هدأ قليلاً وخف تحمسه كشف خطته التي تقتضي أن أتقدم بطلب عمل لدى آبي ريلاند بعد أن أعلن أنه يحتاج سكرتيرا إنكليزيا من ذوي النمط الاجتماعي الراقي وذوي الكفاءة العالية والحضور المتميز. قال بواورويعتذر:

- ربما أستطيع أنا أن أدبر نفسي، لكن الأمر يبدوصعبا: أن أتكلف دور المحتاج وأنكر شخصيتي المشهورة، ربما كنت أتكلم الإنكليزية بطلاقة ولكن سيكون علي أن أضحي بشاربي.. وحتى لوتخليت عن شاربي أيضا سأظل معروفا أنني هيركيول بوارو.

وافقته أن الأمر عسير عليه وأعلنت استعدادي ورغبتي في اختراق بيت ريلاند وأنني أطمح للنجاح

- سوف أهيئ لك الشهادات التي تجعل ريلاند يلعق شفتيه، سآتيك بورقة من

وزير الداخلية نفسه، سأجعله يحط على يدي كعصفور أتى لينقر كسرة الخبز

كانت الخطوة الأولى أن نذهب إلى فنان في المكياج. حدق المزين بي مليا وهوصامت، وكنت أنظر ألي رأسه الصغير وحجمه الضئيل مثل هيركيول بوارو، ثم بدأ صنعته بجد وهمة

بعد ساعتين تقريبا قمت إلى المرآة فنظرت فأذهلني مشهد نفسي، حذاء خاص جعلني أطول بإنشين، ومعطف طويل أبدوفيه نحيفا طويلا، لقد تغير شكل حاجبي وملامح وجهي مختلفة تماما، اختفى شاربي وظهرت من جانب فكي الأيمن سن ذهبية، تحول لوني من السمرة إلى البياض، إن المظهر بلا شك ذوقدرة على الخداع، نظر بوارووقال:

- اسمك هوأرثر نيفلي، يحفظك الله يا عزيزي، أرجوالله أن ينجيك من الخطر

في فندق سافوي، في الموعد الذي حدده آبي ريلاند قدمت نفسي..

قادوني إلى غرفة علوية حيث كان يجلس رجل طويل خلف طاولة ضخمة، لقد بدا نحيفا طويلا وله ذقن بارزة وأنف معقوفة قليلاً ، عيناه اللامعتان تكادان تختفيان تحت حاجبين غليظين. أما شعره فقد كان رماديا غزيرا، وكان في فمه سيغار طويل لا يكاد يتركه

كان يتكلم بطريقة فظة من طرف من فمه، وكان يمن على محدثه بعدد الكلمات، بل يشعره أنه يتفضل عليه بالحديث:

- اجلس

جلست وكان قلبي يدق عنيفا حتى خشيت أن يسمع دقه، كانت أمامه رسالة يبدوأنها بخط وزير الداخلية:

- في هذه الرسالة أنك ثقة، فهل تجيد المجاملة الاجتماعية؟

- أظن أنني أستطيع إرضاءك في هذا

- لوكان عندي جماعة فيهم الدوق والأيرل والفيكونت يجتمعون في بيتي الريفي، هل تستطيع أن تجلسهم كلا في مقعده المناسب؟

- بكل سهولة يا سيدي

تبادل معي حديثا قصيرا ثم أشعرني بالموافقة، ووجدت نفسي مستخدما عنده، فقد كان ريلاند يريد سكرتيرا مطلعا على خفايا المجتمع الإنكليزي حيث كان عنده سكرتير آخر أمريكي وكاتبة اختزال

ثم بعد يومين توجهت إلى هاتون شيز مركز دوق مقاطعة لوشير الذي استأجره ريلاند ستة أشهر، وهناك لم أجد صعوبة في تأدية واجبي ؛ فقد عملت - ذا ت يوم - سكرتيرا لأحد أعضاء البرلمان

كان ريلاند يستضيف نخبة من كبار الناس في نهاية كل أسبوع، أما سائر أيام الأسبوع فكانت هادئة نسبيا، وكان في البيت ثلة من الموظفين: كبير الخدم ومدبرة المنزل والطاهي وخدم وخادمات، وحاولت إمعان النظر فيهم جميعا ومعرفتهم عن قرب، فكنت أشعر بالريبة بكبير الخدم، أما الشاب الأمريكي السيد أبلباي فقد بدا مرحا يثق بنفسه ويتقن عمله باقتدار

ديفز الخادم الخاص للسيد ريلاند الذي أحضره من نيويورك شخص غامض ونفسي تمتلئ شكوكا فيه، وكان عنده سيدة ثقة

واجتهدت أن أتقرب من الآنسة مارتن كاتبة الاختزال، تلك الفتاة التي تسحرك. كانت في الثالثة والعشرين تقريبا، لها عينان عسليتان وشعر خروبي مسترسل، كانت فتاة لعوبا رغم محاولاتها أن تحتشم. حاولت كسب ثقتها لا سيما بعد أن تبين لي أنها تكره سيدها ولا تثق فيه

مكثت في هاتون شيز ثلاثة أسابيع، وكانت حياة هادئة لا حوادث فيها، حيث لم أستطع أن أعرف شيئا يستحق الذكر، وبدا ريلاند في نظري شخصية ذات مكانة اجتماعية متميزة لها القدرة على التأثير، ولا يبدوأنه على صلة بمنظمة الأربعة الكبار، وكانت تترسخ في نفسي قناعة أن بواروقد أخطأ في ظنه الجائر الذي يربطه بهذه المنظمة المشبوهة الى أن سمعته مرة يذكر بواروحين يأكل عشاءه في إحدى الأمسيات:

- يقولون انه رائع ذاك الرجل الصغير، لكني وجدته انهزاميا! اتفقت معه على صفقة ولكنه رفضها في الدقيقة الأخيرة، إني لا أود معاملة صاحبك

هيركيول بوارومرة أخرى!

في تلك اللحظة شعرت بزيف (المكياج) الذي يكسووجنتي...

ثم حصلت على قصة مثيرة عندما سافر ريلاند ومعه أبلباي، فقد كنت أسير في الحديقة مع الآنسة مارتن بعد شرب الشاي، كانت الفتاة تبدوطبيعية جدا وغير منفعلة، لكني كنت ألمح أسرارا وأحاديث تجول في رأسها، وأخيرا قالت:

- هل تعلم يا ميجر نيفلي أنني أفكر في الاستقالة من عملي في هذا المكان؟

ظهرت علي علائم الدهشة فيما تابعت هي قائلة:

- آه! أدرك أن كثيرا من الناس سينعتونني بالحماقة ؛ إنهم يحسدونني على هذه الوظيفة، لكني ما عدت قادرة على تحمل المزيد من الشتائم، لا أحد يصدق أن مثل هذه الأفعال تصدر عن مثل هذا الشخص العظيم!

- وهل يسيء لك ريلاند؟

هزت رأسها ثم قالت:

- إنه سريع الغضب وذو مزاج متقلب، وهذا شيء لا يحتمل، وهوإذا صار ثورا هائجا كاد يبطش بمن يلقاه لاتفه الأسباب، لا أحد يستطيع احتماله، إنها مشكلة تستعصي على الحل

قلت وأنا أرجوسماع المزيد:

- هل لك أن توضحي الأمور؟

- كما تعلم فإنني أفتح رسائل السيد ريلاند فأسلم بعضها إلى أبلباي والأخرى أقوم بالإجراءات التي تخصها بنفسي. وإذا فرزت الرسائل الأولى علي أن أتعامل بحذر مع نوع من هذه الرسائل، وهي التي تجيء مكتوبة فعلى ورق أزرق وقد ظهر على أحد أطرافها الرمز - رقم «٤» - بخط صغير

وعندها لم أستطع كبح صرخة ذهول انطلقت من أعماقي، لكني حاولت خنقها في مهدها مما جعلها تنظر إلي قائلة:

- عذراً، هل تريد أن تقول شيئا؟

- لا، لا شيء بتاتاً، أكملي..

- حسنا، الرسائل التي تحمل هذا الرمز هناك أمر صارم بعدم فتحها، ويجب تسليمها إلى السيد ريلاند نفسه..

ولقد حدث في صباح أمس أن فتحت إحدى هذه الرسائل خطأ فذهبت من فوري إلى السيد ريلاند وشرحت له الموقف واعتذرت له كثيرا لكنه انقلب فجأة إلى صورة شيطانية مرعبة وكاد يفتك بي، كنت خائفة منه جدا!

- وهل كان الأمر يستحق هذه الثورة؟ ماذا كان في الرسالة؟

- لا شيء، وهذا مما يدعوإلى التساؤل ويثير الدهشة، لقد قرأتها قبل أن أكتشف خطئي وأذكرها كلمة كلمة، لم يكن فيها ما يدعوإلى القلق..

شجعتها قائلا:

- هل تستطيعين تكرارها؟

- نعم: «سيدي العزيز، إن الأمر الضروري الآن هورؤية الأملاك. إذا كنت تصر على تضمين المحجر فان سبعة عشر ألفا تبدومعقولة، إن ١١٪ عمولة تبدوكثيرة، ٤٪ قدر وافر..

المخلص أرثر لافير شام»

أصغيت إلى حديثها بكل عناية مع تظاهري بعدم الاهتمام، فيما تابعت قائلة:

- من الواضح أن السيد ريلاند كان يفكر في شراء بعض الأملاك، لكني في الحقيقة أشعر أن في الأمر ما يدعوللإثارة الفضول، إنه يبدورجلا خطيرا، فماذا تنصحني يا سيد نيفلي؟ إن خبرتك في الحياة أكبر

حاولت تهدئة الفتاة قليلاً مشيراً إلى أنه ربما كان يعاني من حالة صحية مؤثرة، ولقد بدا عليها الارتياح، لكني لم أشعر بالاطمئنان إلي السهولة التي تم بها الأمر

غادرت الفتاة المكان وجلست وحدي أفكر في هذه الرسالة المهمة التي دونت كلماتها على عجل. بدت الرسالة صادقة وليس فيها ما يدعوللإثارة، فهل كانت تخفي صفقة تجارية ينوي ريلاند إنجازها. وهل هوحريص ألا تكشف أي أسرار منها قبل إنجازها؟ ربما، فهذا جائز، لكن العلامة التي كانت تظهر على المغلفات هي موطن الإثارة.. رقم «٤» بخط صغير!

مكثت طيلة اليوم ومعظم نهار اليوم التالي وأنا أفكر في هذه الرسالة، وفجأة شعرت أني اهتديت إلى الحل، رقم «٤» كان هوالدليل، فحين نقرأ كل رابع كلمة في الرسالة تظهر رسالة أخرى مختلفة:

«ضروري رؤيتك، المحجر، ١٧، ١١، ٤»

الأرقام كانت تعني بسهولة: ١٧ - أكتوبر والذي يصادف غدا، ١١: الساعة، ٤: هوالإمضاء المعروف أما المحجر فهوإشارة إلى المحجر المهجور الذي يبعد نصف ميل عن بيت ريلاند وهومنطقة معزولة تصلح للقاءات السرية

شعرت بالانتصار عندما تمكنت من فهم اللغز، وشعرت بفرحة غامرة وسعادة في داخلي لأني ربما تفوقت في هذه المرة على بوارو، مما جعلني أفكر في مغامرة كشف هذا اللقاء وحدي، لكني في النهاية بعد تفكير وتردد قهرت هذا الإغراء وعلمت أن هذا عمل كبير خطير ربما يعرض فرصة نجاحنا إلى الخطر، ولا بد من إعلام بواروفهويملك عقلا أفضل مني بالتأكيد

كتبت له رسالة تبين الحقائق، وأوضحت له ضرورة رصد ذلك اللقاء، وكشفت له رغبتي في إدارة اللعبة وحدي إذا رأى ذلك من الحكمة، ثم أخذت الرسالة بنفسي إلى محطة البريد وقد فصلت له كيفية القدوم إلى المكان إذا لم أستطع مقابلته في المحطة

كنت شديد الانفعال في مساء اليوم التالي وكان المنزل خالياً من الضيوف ولكني كنت مشغولاً طيلة المساء مع السيد ريلاند، وقد فقدت الأمل أن أستطيع لقاء بواروفي المحطة، لكني كنت واثقا أنني سوف أغادر قبل الحادية عشر

كان عقرب الساعة يقترب من العاشرة والنصف عندما نظر ريلاند إلى ساعته، وأشار بأن العمل قد انتهى ذاك اليوم، ففهمت الإشارة وانسحبت بهدوء نحوالطابق العلوي كأنني أريد الاستعداد للنوم لكنني تسللت من الأسفل بهدوء عبر درج جانبي، ثم تسللت إلى الحديقة وقد أخذت حذري ولبست معطفا أسود طويلاً.

نظرت خلفي فجأة فوقعت عيناي على السيد ريلاند يخرج من نافذة مكتبه إلى الحديقة مسرعا لكي يفي بوعده، انطلقت مسرعاً أكثر لكي أسبقه إلى

المحجر، وهناك كان المكان خالياً، فتوجهت نحوشجيرات منعزلات في إحدى زوايا المحجر وقد تشابكت مع بعضها لأرقب الأحداث

وبعد عشر دقائق ظهر ريلاند يمشي بتشامخ، يلبس قبعته التي تدلت على عينيه وقد تدلى من فمه سيجاره الذي لا يفارقه، نظر حول المكان ثم نزل في حفر المحجر. سمعت همس رجال كان يصل إلى أذني مما يشير إلى أن الرجال الآخرين كانوا قد وصلوا إلى المكان أولا

خرجت من بين الشجيرات بهدوء شديد دون أي ضجيج، وتسللت منحدرا نحوهم ببطء وحذر شديدين، واختفيت خلف صخرة كبيرة كانت تفصلني عنهم

كان الظلام يلف المكان، وكنت أسمع حديثهم بوضوح، وشعرت أني آمن في موقع استراتيجي غير مرصود، لكن المفاجأة المحتومة وقعت عندما نظرت إلى حافة الصخرة فوجدت نفسي فجأة أمام فوهة بندقية مصوبة نحوي، وإذا الرجل يكمن قرب الصخرة وقد وقعت في الشرك تماما.. ياللفزع!

صرخ في بلهجة مرعبة، وشعرت بفوهة البندقية الباردة على قفا عنقي!

قال ريلاند متشدقاً: مرحباً، لقد كنت أنتظرك. ثم صاح بالرجل:

حسنا يا جورج، أحضره هنا

قادني الرجل وأنا أمتلئ غيظاً وحنقاً من هذا الفشل الكبير بعد أن تم تكميدي وتكبيلي بإحكام. وخاطبني ريلاند بلهجة حازمة كلها تهديد ووعيد:

- هذه هي نهايتكما، لقد حاولتما التدخل في شأن الأربعة الكبار أكثر من مرة، ولن يكون الأمر سهلاً، هل سمعت بالانهيار الصخري؟

لقد حدث مثل هذا الانهيار في هذا المكان قبل سنتين، وسيحدث آخر بعد قليل هنا أيضا، وسوف يتم ذلك بكل دقة وإحكام، لكن صديقك لا يحترم مواعيده بدقة كما يبدو، أليس كذلك؟

اجتاحتني موجة رعب وشعرت بالرعدة تسري في جسدي حين ذكّرت بوارووأنه بعد لحظات سوف تقوده قدماه إلى الفخ ولا أملك أية وسيلة لتحذيره من هذا المصير المشؤوم، أستطيع فقط أن أدعوالله راجيا ألا يأتي هنا، ومع

مرور الوقت كنت أشعر بالاطمئنان..

فجأة اندفعا بسرعة بعد سماع وقع أقدام تقترب.. كان القادم هوبوارو، وصرخ ريلاند:

- ارفع يديك!

قفز ديفز مرافق ريلاند فاجأ بوارو من الخلف، لقد اكتمل الكمين. قال ريلاند:

- أنا مسرور بلقائك يا سيد بوارو

بدا بواروضابطا أعصابه بصورة عجيبة، لم يضعف ولم يهتز، لكني رأيت عيناه تبحثان يمنة ويسرة في الظلمة، سأل:

- صديقي هل هولديكم؟

- نعم، كلاكما في الفخ، فخ الأربعة الكبار!

ابتسم بواروبسخرية ثم سأله:

- فخ؟ أي فخ هذا؟

- ألم تدرك ذلك حتى هذه اللحظة؟

- أدرك أن هناك فخا لكنك مخطئ في ظنك يا سيد، أنت الذي وقع في الفخ لا أنا وصديقي!

- ماذا تقول؟

رأيت الاضطراب على وجه ريلاند فيما راحت عيناه تبحثان في المكان والتطير بدأ يظهر في حركته ونبرة صوته..

- إذا أطلقت النار فانك ترتكب جريمة قتل أمام عشر عيون ترقب الحدث، سوف تشنق بسببها، المكان محاصر تماماً، رجال سكوتلانديارد يحيطون بالمكان منذ ساعة سقط الملك في هذه الجولة يا سيد آبي ريلاند

ثم أصدر صفيراً مثيراً، وفي برهة أصبح المكان يضج بحركة الرجال المسلحين حقاً، كأن ذلك تم بطريقة سحرية، أمسكوا بريلاند وخادمه الخاص وجردوهما من السلاح، ثم تحدث بواروبضع كلمات مع الضابط المسئول، وبعد لحظات أصبح المكان خاليا من الرجال والحركة، أقبل بوارويعانقني كأني في

حلم ليلي مرعب!

- انك لم تصب بأذى، هذا رائع، لقد لمت نفسي كثيراً لأني تركتك تذهب وحدك!

- إني في صحة تامة، لكنني مضطرب قليلاً ، لقد سقطت في شركهم الصغير، أليس كذلك؟

- لكنني كنت أنتظره، ومن أجل هذا كان عملك مع هذا الشخص. اسمك مزيف، وشخصيتك التضليلية لم يقصد منها الخداع أبدا يا عزيزي

- ماذا تقول؟ هل أنت جاد في حديثك؟ لماذا لم تخبرني بشيء عن هذا كله؟

كانت الأسئلة تتبعثر من بين شفتي من الدهشة دون ضبط، وشعرت بعجزي عن فهم هذه اللعبة..

- كما قلت لك يا هيستنجز، انك تتمتع ببراءة الأطفال يا صديقي، وإن لم تكن مخدوعا فيصعب عليك أن تخدع هؤلاء، لقد اكتشفت من أول لحظة ولقد توقعت كل ما حدث، إنها مسألة رياضية واضحة النتيجة لكل من يعمل خلاياه الرمادية بشكل صحيح، حاولوا أن يجعلوك طعماً، وكانت الفتاة هي الوسيلة، فهل كان شعرها أحمر؟

- إن كنت تقصد الآنسة مارتن، فان شعرها يحوي ظلاً ناعماً من اللون الخروبي، ولكن..

- لقد درسوا شخصيتك بإمعان، انهم جماعة مدهشون!

نعم يا صديقي، كانت الفتاة متورطة تماما في المؤامرة، لقد كررت عليك الرسالة وهي تروي قصتها مع ريلاند، إنها طريقة ذكية بلا شك، وأنت استطعت تحليل الشفرة التي لم تكن صعبة على كل حال، لكن الشيء الذي لم يحسبوا حسابه أني كنت أنتظر هذا الفعل الذي سيقدمون عليه ثم تدبرت الأمور مع جاب وهكذا انتصرنا كما ترى

لم أشعر بالسرور تجاه ما حدث ولم أكن راضياً عن أسلوب بواروهذا، ولقد علم شعوري

وفي صباح اليوم التالي توجهنا إلى لندن في قطار الحليب الذي ينطلق

مبكرا في رحلة غير مريحة على الإطلاق

خرجت من الحمام للتوغارقا في أحلامي بفطور لذيذ وإذا بصوت جاب ينبعث من غرفة الجلوس:

- لأول مرة أشعر أنك تندفع سريعا يا بوارو، ما هذا السراب الجميل الذي أوقعتنا فيه، حادثة سيئة بلا شك

كان بواروفي قمة دهشته ينظر إلى جاب بوجوم ثقيل وهويتابع حديثه:

- لقد أخذنا اليد السوداء على محمل الجد، وإذا بذلك الشخص هوالخادم

صرخت فزعاً:

- الخادم؟

- نعم، إنه جيمس أوأيا كان اسمه، إنه يستطيع أن يمسك الرجل العجوز بأسنانه، وهويستطيع أن يزوده بأشياء كثيرة عن الأربعة الكبار..

صرخت بتشنج:

- مستحيل!

- لماذا لا تصدق؟ لقد اقتدنا الرجل المحترم إلى هاتون شيز، وهناك وجدنا ريلاند الحقيقي نائما على سريره ومعه كبير الخدم والطاهي والخادم الخاص، والله يعلم كم ربح كل واحد منهم من هذا الرهان

بوارو- همسا -: ربما يكون إذن هوالسبب في بقائه في الظل

نهض جاب وانصرف، كان الجوملبئا بالغموض والذهول، نظر كل منا إلى الآخر بصمت وقال بوارو:

- إننا نعرف يا هيستنجز أن آبي ريلاند هورقم «٢»، والتنكر في دور الخادم كان هوالضمان الوحيد لخط الرجعة في حالة الطوارئ، أما الخادم..

قلت وأنا ألتقط أنفاسي:

- نعم؟

رد بواروبهدوء:

- انه رقم «٤»

الفصل التاسع

أعقبت حادثة المحجر تلك فترة هادئة، لكني كنت أشعر أننا لم نحقق القدر الواجب من النجاح والتقدم في ملاحقة الأربعة الكبار، فمنذ اتصالنا بهم ارتكبوا جريمتين وخطفوا هاليدي، وكانوا على شفا قتلي أنا وبوارو، ولم نستطع أن نسجل إلا نقطة واحدة في هذه اللعبة الخطرة..

وحين صارحت بواروبما في نفسي قال:

- هم يضحكون حتى هذا الوقت يا هيستنجز، هذا صحيح، لكنّ المثل الإنجليزي: «المهم من يضحك أخيراً؟«يصدق فيهم، أليس كذلك؟ يجب أن تعلم أننا لا نواجه مجرماً سهلاً، بل نواجه أعظم أدمغة في الشرق والغرب!

لم أكن أرغب سماع هذه الإجابة، كنت فقط أحاول استدراج بوارومن أجل الإفصاح عن بعض خطواته اللاحقة في تعقب الخصوم، لكنني فشلت؛ لأنه قابلني بعادته المعروفة: التكتم الشديد في كل ما يريد مستقبلاً، وتركني في جهل مطبق كما يحصل دائماً!

لقد ثارت لديّ شكوك حول اتصالات محتملة يجريها مع الاستخبارات السرية في الهند والصين وروسيا، وعرفت من صورة اندفاعه في تجميد نفسه دائماً أنه كان يتقدم في لعبته المفضّلة: اكتشاف عقلية عدوّه!

تخلى بواروعن عمله الخاص كله، ورفض عروضاً ضخمة كما أعلم صراحة، بل كان كثيراً ما يتخلى عن قضايا يشرع في التحقيق فيها بعدما يتبين له أنْ لا صلة لها بنشاط الأربعة الكبار.

الرابح الكبير من هذا الموقف هوالمفتش جاب الذي اكتسب شهرة كبيرة لا

نستطيع إنكارها من قدرته على حل كثير من المعضلات التي يعود الفضل في نجاحه فيها إلى تلميح بواروالذكي.

في المقابل كان جاب يمد بواروبكثير من الأخبار اللازمة في قضاياه، وعندما عُيّن مسئولاً في القضيّة التي سمّتها الصحف «لغز الياسمين الأصفر«طلب من بواروأن يحضر لينظر فيها إن كان يهمه ذلك.

على أثر هذه الرسالة وجدنا أنفسنا وحدنا في مقصورة قطار ينعطف بعيداً عن دخان لندن وغبارها متجهاً إلى بلدة ماركت هانْد فورد الصغيرة في مقاطعة وِرْشِسْتَرْ شَيَرْ حيث مكان اللغز.

سألني بواروهويتكّئ على جدار المقصورة:

- ما قولك في المسألة يا هيستنجز ؟

لم أسرع في الجواب، بل حاولت أن أكون حذراً وعمدت إلى كلمة أساسها العموم:

- كل شيء يبدومعقّداً!

فقال بمرح: نعم، أليس كذلك؟

- اندفاعنا بهذه السرعة يشير إلى اعتقادك أن وفاة السيد باينتر كانت نتيجة لجريمة قتل لا انتحاراً ولا حدثاً عابراً..

- لا، لا يا هيستنجز، أنت تسيء فهمي، هبْ أن هذا صحيح فلابد من كشف كثير من المُلبسات والظروف الغامضة.

- هذا ما عنيته عندما قلت بأن كل شيء يبدومعقداً.

- إذاً دعنا نستعرض حقائق القصة بهدوء ومنهجية، أعد سردها عليّ يا هيستنجز بوضوح وترتيب.

بدأتُ أسرد أحداث القصة بنظام ومنهجية قدر استطاعتي:

- نبدأ بالسيد باينتر: رجل في الخامسة والخمسين، غني مثقف كثير الأسفار، لكنه ضاق في سنينه الأخيرة بالسفر فعمد إلى الاستقرار بعد أن اشترى بيتاً صغيراً في وِرْشستر شَيَرْ قرب ماركت هاند فورد وأراد العكوف على الكتابة، لكنه أرسل إلى ابن أخيه الأصغر يشير عليه أن يأتي ليسكن معه في كروفت لاندز.

فرح ابن أخيه بهذا الرأي، وكان فناناً مفلساً، وعاش مع عمه حوالي سبعة أشهر إلى أن حدثت المأساة.

بوارو- بهمس -: أسلوبك روائي جذاب كأنك تقرأ من كتاب!

حاولت أن أكمل القصة بحماسة وجِدّ متجاهلاً كلمة بوارو:

- لدى باينتر طقم من ستة خدم في كروفت لاندز زيادة على خادمه الصيني الخاص آه لِنْغ.

همس بواروومستغرقاً: الخادم الخاص الصيني آه لِنْغ...

- يوم الثلاثاء من الأسبوع الأخير اشتكى السيد باينتر ألماً معوياً بعد العشاء فأرسل أحد خدمه ليحضر الطبيب، وعندما حضر الطبيب استقبله السيد باينتر في مكتبه رافضاً أن يذهب إلى السرير، ولم يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث، لكن الطبيب كوينتين طلب أن يرى مدبرة المنزل، وذكر أنه أعطى السيد باينتر إبرة تحت الجلد لأن قلبه في ضعف شديد، وأوصى بألا يزعجه أحد، ثم بدأ بأسئلة كثيرة عن الخدم: متى عملوا هنا؟ ومن أين جاءوا؟... إلخ.

أجابت مدبرة المنزل أسئلته قدر استطاعتها، وكانت تعتريها الحيرة والدهشة من مغزى هذه الأسئلة.

وفي اليوم التالي حدث شيء مرعب، فبينما كانت إحدى الخادمات تتجول في أطراف المنزل إذ شمت رائحة لحم محترق مقززة، وحين بحثت عن مصدر الرائحة عرفت أنها من مكتب سيدها، حاولت فتح الباب لكنها وجدته مقفلاً من الداخل، وبمساعدة جيرالد والرجل الصيني تمّ اقتحام المكتب، ليجد القوم أنفسهم أمام منظر رهيب: لقد سقط السيد باينتر في موقد الغاز وقد احترق رأسه ووجهه حتى ليكاد يستحيل التعرف إليه!

في تلك اللحظة لم يَقَعْ أيّ اشتباه، وإن لم يكن بدّ من لوم فأولى الناس باللوم هوالدكتور كوينتين الذي حقن مريضه مخدراً وتركه في هذه الحال الخطيرة.

ثم بعد ذلك تم كشف شيء يثير الفضول: كان على الأرض عند الكرسي الذي كان يجلس عليه الرجل العجوز صحيفة ملقاة يبدوأنها قد انزلقت عن

ركبتيه وقد كتب عليها بخط يد كبير ضعيف بضع كلمات ووجد إصبع السبابة في اليد اليمنى للضحية ملطخاً بالحبر، ولا بد أن الضحية كان في حال ضعف شديدة فلم يَقْوَ على الإمساك بالقلم فعمد إلى سبابته يضعها في الحبر وكتب هاتين الكلمتين على سطح الصحيفـة التي كانت بين يديه، والكلمتان واضحتان تماماً: «ياسمين أصفر.«!

لوحظ أن جدار المنزل كان ينموعليه الياسمين الأصفر، وهذا دعانا أن نقول بإن رسالة الاحتضار ذات علاقة بهذا النبات، مما يوضح أن عقل العجوز كان يخرف، لكن الصحف جعلت من الحادث قصة مثيرة وأسمتها «لغز الياسمين الأصفر» وإنْ لم تَبْدُ حقيقة في هذه الأهمية.

قال بوارو: تقول بإنها غير مهمة؟ حسناً، إذا كنت تظن أنها غير مهمة فهي كذلك.

نظرت إليه بارتياب شديد، فقـد عودني على التهكم المـرير ولكني لم أقرأ السخرية في عينيه، وأكملت الأحداث:

- وبعدها بدأت فصول تحقيق القضية والبحث فيها..

- أدرك أنك هنا بدأت تلعق شفتيك..

- كان هناك شعور كبير بأن المتهم هوالدكتور كوينتين أولاً؛ فهولم يكن الطبيب المعتمد، بل كان طبيباً طارئاً بدل الدكتور بوليثوالذي كان يقضي إجازة بعيداً.

وهناك إحساس أن الإهمال هوسبب المأساة الأول، لكن أقوال الدكتور كانت مختصرة ومثيرة، فقد كان السيد باينتر يشعر بوعكة صحية خفيفة منذ وصوله إلى كروفت لاند، وأشرف على علاجه الدكتور بوليثو، وعندما رآه الدكتور كوينتين أول مرة كان متحيّراً تجاه بعض الأعراض، ولدى انفراده بالسيّد باينتر أطلعه على أمر غريب، فهولم يكن يشعر بأي مرض على الإطلاق، إلاّ أن طعم الكاري الذي أكله على العشاء كان في غاية الغرابة، لدرجة أنه اضطر - وقد استبدّ به الشك - أن يختلق بعض الأعذار ليصرف آه لنج بضع دقائق تمكّن خلالها من سكب محتويات صحنه في السلطانية.

وعلى الرغم من قوله إنه لم يشعر بالمرض، لاحظ الطبيب أن السيد باينتر

كان يعاني من أثر الصدمة فقرّر إعطاءه إبرة ستراي‍كـنين.

وتوقفت عن سرد أحداث القصة قليلاً قبل أن أختتم معلّقاً:

- أعتقد أن في ذلك تمام القضيّة، ولا يبقى غير الإشارة إلى النقطة الأساسية في الموضوع، وهي أن الكاري الذي لم يؤكل قد أُخضِع للتحليل فعثر فيه على كمية من الأفيون تكفي لقتل رجلين! وسكتّ، فسأل بواروبهدوء:

- وما رأيك يا هيستنجز ؟

- من الصعب القول بأنه حادث وكذلك محاولة سُمّه في الليلة السابقة ربما تكون مصادفة.

- لكنك لا تظن ذلك... إنك تعتقد أنها جريمة قتل.

- ألا تعتقد أنت ذلك أيضاً؟

- نحن، يا صديقي هيستنجز، نفكر بطريقة مختلفة، أنا لا أحاول أن أقرر أحد حلّين مختلفين: إما القتل أوالقدر، سيأتي ذلك بعد أن نحلّ لغز الياسمين الأصفر، انظر هناك، شيء ما عند الكلمتين!

- تقصد الخطين اللذين عن اليمين؟ لا أظنهما مهمين..

- ربما هذا لك وحدك، دعنا ننتقل من لغز الياسمين الأصفر إلى لغز التوابل الهندية.

- السؤال: من الذي سممه؟ ولماذا؟ عندي مئة سؤال تحتاج جواباً، الذي أعد الطعام هوآه لنج لكن لماذا يرغب في قتل سيده؟ هل هوعضوفي جمعية سرية صينية ربما يكون اسمها جمعية الياسمين الأصفر؟ ثم هناك جيرالد باينتر!

هز بواروراسه وقال:

- نعم، جيرالد باينتر وريث عمه، ثم إنه أكل عشاءه خارجاً ذلك اليوم.

- ربما كان مطّلعاً على الأمر فحرص أن يأكل عشاءه في الخارج لكيلا يأكل الوجبة.

شعرت أن تفسيري اشغل بواروفنظر إليّ نظرة احترام أكثر من قبل وحاولت الاستمرار في نظريتي:

- عاد متأخراً ورأى النور في مكتب عمه فعلم أن خطته فشلت فدفع

الرجل العجوز في موقد الغاز.

- السيد باينتر كان في صحة جيدة وما كان يمكن أن يسمح بأن يُحرق حتى الموت دون أن يبدي مقاومة، هذا الرأي غير راشد.

- أظن أننا اقتربنا من الحل، دعنا نرى رأيك في المسألة.

انتفخ بوارومغروراً وألقى نحوي ابتسامة ثم قال:

- هب أنها جريمة قتل، فإن السؤال هو: لماذا اختار القاتل هذه الطريقة ليقتله؟ ربما يكون الجواب: من أجل إخفاء الهوية، لقد احترق الوجه حتى لا يمكنك معرفته. هل تكون جثّة رجل آخر؟ لكن الجواب الراجح هوالنفي.

ثم هناك أشياء أخرى تحتاج تحقيقاً وبحثاً، لكن يجب ألا أسمح لهاجس الكبار الأربعة أن يسيطر على عقلي، ومن الخطر أن يجعل الإنسان نفسه أسيراً لفكرة واحدة، ولقد تمعنت بالخطين المرسومين فوجدتهما بداية الرقم«٤.»

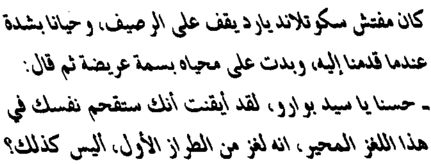
علا صوتي بضحكة سخرية قائلاً:

- لله درك يا بوارو!

- أليس ذلك سخيفاً؟ إنني أرى الأربعة الكبار في كل مكان..

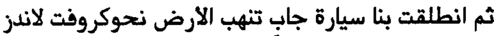
ها هو ذاجاب قادم إلينا..

الفصل العاشر



كان مفتش سكوتلانديارد يقف على الرصيف، وحيانا بشدة عندما قدمنا إليه، وبدت على محياه بسمة عريضة ثم قال:

ـ حسنا يا سيد بوارو، لقد أيقنت أنك ستقحم نفسك في هذا اللغز المحير، انه لغز من الطراز الأول، أليس كذلك؟



ثم انطلقت بنا سيارة جاب تنهب الأرض نحوكروفت لاندز

كان البيت أبيض جميلاً تحيط به الأشجار والنباتات المتعرشة وفيها الياسمين الأصفر اللامع وكنت أشعر بظلال من الكآبة تخيم على المنزل، وكان صمت الأشجار موحشاً، والورود تتمايل بحزن كأنما ترثي صاحب المنزل

وكان الياسمين الأصفر يشد العيون ؛ لأن اسمه كان عنوان اللغز.. يبدوأن الرجل كان ذاهلا حين كتب هذا، إنها كلمات لا معنى لها ولا تفيد شيئا

ابتسم بواروقال:

- ما الذي تراه يا سيد جاب؟ حادث أم جريمة؟

بدا المفتش مرتبكا محرجا أمام سؤال بوارو:

- إذا نفينا أثر تلك التوابل الهندية ولم يثبت أنها هي السبب في الوفاة فإني أميل إلى الرأي القائل بأنه حادث ؛ لأني أستبعد أسلوب القتل بوضع رأس رجل حي في النار: ألا ترى أنه كان سيملأ البيت صارخاً..

قال بوارويحدث نفسه:

- آه لقد كنت أحمق، أحمق ثلاث مرات، انك أذكى مني يا جاب!

فوجئ جاب بهذا المديح.. كان بواردائما يمدح نفسه ويسخر من غيره، واحمر وجه جاب وكانت شفتاه تتلعثم بكلمات غير مفهومة تشير إلى الريبة

والشكوك في نفسه في صدق بواروعند مدحه

دخلنا المنزل متجهين عبر ردهاته إلى الغرفة التي حدثت فيها المأساة: مكتب السيد باينتر، كانت غرفة واسعة، جدرانها تنوء بحمل الرفوف الملأى بالكتب العتيقة

نظر بواروعبر الشباك إلى حديقة خلفية فيها حصباء، ثم سأل:

- هل كان مزلاج الشباك مفتوحا؟

- يبدوأن القضية كلها هنا ؛ لأن الطبيب حين خرج أغلق الباب خلفه، وفي صباح اليوم التالي وجد مقفلا من الداخل، من الذي اقفله؟ هل هوالسيد باينتر نفسه؟ آه لينج أكد أن الشباك كان مغلقا بالمزلاج، والدكتور كوينتين قال بأنه كان يشك أن الشباك كان مغلقا لكن ليس بالمزلاج، لكنه لم يتأكد، ولوتأكد لأدى ذلك إلى خلل خطير!

فإذا كانت جريمة قتل فلا بد أن يدخل القاتل من الباب أوالشباك، وإذا كان الشباك فمن الأرجح أن الفاعل شخص من الخارج، وربما فتحوا النافذة على مصراعيها حين كسروا الباب، والخادمة التي فعلت هذا تقول بإن النافذة لم تكن مقفلة بالمزلاج، لكنها شاهدة سيئة جدا: لا تتذكر إلا ما يطلب منها أن تتذكره

- وماذا عن المفتاح؟

- وجد على الأرض بين حطام الباب، وقد يكون سقط من القفل عند الاقتحام، وربما أسقطه شخص ما حين دخل، أويكون دخل من تحت الباب من الخارج

- يبدوأن كل شيء عندك «قد يكون ».

كان بوارويبحث عن نقطة وسط الركام، وكان وجهه عابساً مقطباً لأنه لم يجد ما يريد، ثم قال:

- إنني أدور في ظلام دامس، كلما لمحت ومضة سرعان ما تنطفئ!

جاب - بتجهم -: جيرالد الصغير لديه باعث قوي، أستطيع أن أقول بإنه كان متوحشا متهورا، الفنانون - كما تعرف - لا خلق لهم!

لم يبد بواروإكتراثا بهجوم جاب القاسي على الفنانين، لكنه ابتسم ابتسامة ذات مغزى كأنه عرف ما في نفس المفتش وقال له:

- يا جاب الطيب، هل تظن أنك تستطيع أن تدر الرماد في عيني؟ إنني على يقين أن أفكارك تتجه بالشك نحوالرجل الصيني لكنك داهية، تريد أن أساعدك وأنت تخادعني!

انفجر جاب ضاحكا:

- هكذا أنت دائما يا سيد بوارو، نعم أعترف أني أراهن على الشاب الصيني فهوالذي عبث بالكاري، وإذا كان قد حاول التخلص منه مرة فقد يحاول مرة أخرى

- لكن السؤال هو: هل حاول ذلك حقا؟

- الذي يؤرقني هوالباعث، لعله انتقام همجي لا باعث له!

- سؤال آخر: هل هناك أثر للسرقة؟ هل اختفت أشياء ثمينة؟ جواهر، أموال، أوراق؟

- كلا، أعني.. ليس تماما!

أصغيت بانتباه شديد، وكذلك بوارو. وأكمل جاب موضحاً:

- أقصد لم تحصل سرقة، لكن العجوز كان يكتب كتابا ما، لقد عرفنا عنه هذا الصباح حين وصلت رسالة من الناشرين يسألون عن المخطوطة، حاولت البحث عنها بمساعدة باينتر الصغير فلم نجد شيئا، ربما يكون قد خبأها في مكان ما..

لمعت عينا بواروبالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيدا وسأل:

- ماذا كان يسمى؟ أعني.. هذا الكتاب؟

- كما أذكر أن اسمه: «اليد الخفية في الصين »

صفر بواروٍوقد أخذته النشوة، ثم قال بسرعة:

- دعني أرى الرجل الصيني آه لينج.

أرسل جاب في طلب الصيني، فجاء يجر قدميه متثاقلا وضفيرته تتأرجح على ظهره، كان وجهه جامدا لا تلمح في أثر للعاطفة، خاطبه بوارو:

- آه لينج. هل أنت آسف لموت سيدك؟

أجاب بلغة إنكليزية ركيكة:

- طبعا إني آسف جدا، انه رجل طيب!
- هل تعرف من قتله؟
- لا، ولوكنت أعرف لأخبرت الشرطة

استمرت الأسئلة والأجوبة والوجه الجامد نفسه لم يتغير، وتحدث آه لينج عن الكاري الذي طبخه بنفسه، وأوضح أن الطاهي لم يكن له يد في ذلك ولم تلمسه أي يد إلا يده هو، وكنت أتساءل: هل كان يعرف أين سيقوده اعترافه؟، وقد أبدى دهشته هوأيضا من فتح النافذة، وأخيرا صرفه بواروقائلا:

- هذا يكفي يا آه لينج

ولكنه ناداه حين وصل إلى الباب:

- وهل تعرف شيئا عن الياسمين الأصفر؟
- لا،وماذا يجب أن أعرف؟
- ولا عن الإشارة التي كتبت تحتها؟

سأله بواروهويميل برأسه نحوالطاولة وقد لمحت عيناه شيئا مكتوبا وسط الغبار المتراكم عليها، فقد كتب بوضوح رقم «٤»!

أصاب الرجل الصيني رعب لمحه في وجهه كأنه أصيب برعشة كهربائية، ثم عاد جامد الوجه مرة أخرى وتراجع وهويكرر إنكاره الشديد

ذهب جاب يبحث عن باينتر الصغير وتركنا وحدنا، صرخ بوارو:

- الأربعة الكبار مرة أخرى يا هيستنجز، باينتر كان جوالا كثير السفر، وبلا ريب كانت لديه المعلومات الخطيرة التي تخص الزعيم والعقل المدبر لمجموعة الأربعة الكبار لي شانج ين!

- ولكن كيف؟ ومن؟
- صه، هاهم أولاً قادمون..

كان جيرالد باينتر شاباً لطيفاً ضعيف الجسم، تزين وجهه لحية بنية لطيفة، وكان يلبس ربطة عنق غريبة، أ

جاب عن أسئلة بواروباستعداد تام.. أوضح قائلاً:

- أكلت العشاء في الخارج مع بعض جيراننا من بيت ويشرليز
- متى عدت إلى البيت؟
- حوالي الساعة الحادية عشرة، معي مفتاح المزلاج، جميع الخدم كانوا قد ذهبوا للنوم، وظننت أن عمي نام أيضا. أذكر أنني لمحت ذاك المتسول الصيني صاحب القدم الطرية آه لينج وهويتحرك بخفة حول زاوية القاعة، لكنني أظن أنني كنت مخطئا
- هل تذكر آخر مرة رأيت فيها عمك، أقصد قبل أن تأتي لتعيش عنده؟
- آه! لم أره منذ كنت طفلا في العاشرة عندما تشاجر مع أبي!
- لكنه استطاع أن يجدك مرة أخرى ببعض الصعوبة، أليس كذلك؟
- بلى، وقد رأيت أن إعلان المحامي في الجريدة عن طريق الحظ!

لم يسأله بواروأسئلة أخرى، ثم انطلقنا نحوالطبيب كوينتين فكانت روايته هي نفسها دون إضافة تذكر، فقال:

- يا ليتني أستطيع أن أذكر شيئا عن النافذة، ومن الخطورة التفكير في الماضي، فقد يقنع المرء نفسه بوجود أشياء لم تكن موجودة قط.. هذه ناحية نفسية، أليس كذلك يا سيد؟

لقد قرأت عن أساليبك وأنا معجب بك كثيرا.

أستطيع أن أؤكد أن الرجل الصيني هوالذي وضع الأفيون في الطعام، ولكنه لن يعترف ولن نعرف نحن أبدا لماذا، لكن وضع رجل في النار لا يليق بشخصية رجلنا الصيني.. هذا ما يبدولي!

كان جاب يجري مراقبة حثيثة لكلا الشخصين منذ رؤية الجثة، وحاولت أن أقدم رأيي في بعض جوانب القضية، فقلت:

- أظن أن جيرالد باينتر لا صلة له بالجريمة

سخر بواروقال

- أنت دائما تعرف أكثر مما أعرف، وهذه هي المصيبة

ضحكت قائلا:

- أيها الثعلب العجوز، لن تتغير أبدا!

- حتى أكون أمينا يا صديقي فان القضية أصبحت واضحة تماما ما عدا كلمتين: «الياسمين الأصفر»، وإني أظن أن هذين الشخصين لا يملكان قدرة على ارتكاب الجريمة معا، عليك أن تقرر: من الذي يكذب؟..

كنا نمشي في الطريق، وفجأة اندفع بوارومن جانبي إلى مكتبة مجاورة ثم خرج منها بعد بضع دقائق وهويحمل طردا، وما لبث أن انضم إلينا جاب ومضينا نبحث عن مأوى في أحد الفنادق

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي كان الوقت متأخرا، ونزلت إلى غرفة الجلوس، فوجدت بوارويذرع الغرفة ذهابا وإيابا بوجه عابس قلق، وحين رآني صاح وهويلوح بيده:

- لا تتكلم معي، اصمت، حتى أتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام، وأن الرجل قد اعتقل. إن من يكتب رسالة احتضار، يجب أن يكتب شيئا مهما جدا: الياسمين الأصفر، هل تعني شيئا؟ يجب أن يكون كذلك

ثم أخرج كتابا صغيرا وقال: هذا الكتاب أخبرني.. اسمع:

- الياسمين الأصفر: جلسيميني راديكس: مركب جلسيميني قلوي، سم فعال مثل الكونين، الجلسميوم عقار مسكن فعال للجهاز العصبي المركزي، فإذا أخذت منه جرعات كبيرة تسبب الدوار وتضعف القوة العضلية، الموت يكون بسبب شلل مركز التنفس

هل تذكر يا هيستنجز منذ البداية حين أبدى جاب ملاحظته في دفع رجل حي في النار؟ علمت بعدها أن الرجل الذي دفع إلى النار كان ميتا!

- لماذا؟ لماذا؟

- يا صديقي إذا أردت أن تقتل رجلاً بالرصاص وطعنته بعد الموت وضربته على رأسه لكان واضحا أن ذلك تم بعد الوفاة، لكن حين يحترق الرأس حتى يصبح رمادا فلا أحد يستطيع تبين سبب الوفاة الصحيح. والرجل الذي نجا من سم أثناء العشاء لا يجوز أن يتم تسميمه بعد ذلك فورا، من الذي يكذب؟ هذا

هوالسؤال.. قررت أن أصدق آه لينج

- ماذا؟ هل جننت؟

- هل أنت ذاهل يا هيستنجز ؟ آه لينج يعرف وجود الأربعة الكبار، كان هذا واضحا، لكنه لم يكن يعرف درجة ارتباط تلك الجريمة بهم حتى هذه اللحظة، لوكان القاتل هولاستطاع أن يظل جامدا بوجهه بصورة تامة، ولذلك قررت أن أصدقه وركزت شكوكي على جيرالد باينتر. لقد بدا لي أن رقم «٤» قد وجد أن التمثل بشخصية ابن الأخ المفقود منذ سنين سهل جدا!

- ماذا؟ رقم «٤»؟

- لا يا هيستنجز، حين قرأت مسألة الياسمين الأصفر وثبتت الحقيقة أمام عيني في الحال

- كما تفعل دائما.. إنها لا تثب أمام عيني أنا لأنك لا تعمل خلاياك الرمادية، من الذي كانت له فرصة العبث بالكاري الهندي؟

- آه لينج ولا أحد غيره

- لا أحد؟ وماذا عن الطبيب؟

- لقد كان هذا فيما بعد

- فيما بعد، نعم، فعندما ثارت الشكوك في وجبة الكاري الهندي لم يأكل الرجل العجوز منها، وحفظها ليعطيها طبيبه المعالج، وتم استدعاؤه في الحال. الدكتور كوينتين يصل ويتولى أمر الكاري، ثم يعطي مريضه حقنة من الستركنين، وفي الحقيقة هي من الياسمين الأصفر، وحين يبدأ فعل الدواء بالسريان يغادر بعد فتح مزلاج النافذة، ثم يعود عن طريق الشباك ويجد المخطوطة ويدفع السيد باينتر في النار

انه لم يلتفت إلى الصحيفة التي سقطت على الأرض من بين يدي الضحية. لقد عرف باينتر أي دواء أعطي له، وجاهد لكي يتهم الأربعة الكبار بقتله. من السهل على الدكتور كوينتين أن يخلط الأفيون بالكاري ويقدمه للفحص، وفي أثناء روايته يذكر مسألة الستركنين عرضا حتى إذا ما تم كشف موضع الإبرة

تحت الجلد يكون السبب معروفا سابقاً، وفي الحال ينقسم الاشتباه بين كونه حادثا وكونه ذنب الرجل الصيني آه لينج بسبب الكاري الهندي

- لكن هل يكون الدكتور كوينتين هورقم «٤»؟

- أجل يجوز بلا شك يوجد طبيب حقيقي اسمه كوينتين وربما يكون في مكان ما في الخارج، لقد تنكر رقم «٤» في شخصيته ببساطة، والتنسيق الذي تم مع الدكتور بولثيومن أجل العمل طيلة فترة الإجازة تم تنفيذه كله عن طريق المراسلة..

في تلك اللحظة دخل جاب ووجهه محمر جداً.. صرخ بوارو:

- هل أمسكت الرجل؟

- لا، لقد عاد بولثيومن إجازته هذا الصباح وتبين أنه قد استدعي ببرقية لا أحد يدري من الذي أرسلها.. الرجل الآخر غادر الليلة الماضية لكننا سنمسك به

هز بواروراسه باستخفاف وحزن وهويقول:

- لا أظن ذلك!..

ثم رسم بيده رقم «٤» على الطاولة بخط كبير بطريقة لا شعورية..



الفصل الحادي عشر

في إحدى الأمسيات الهادئة كنت مع بوارو نأكل العشاء في مطعم صغير في سوهو عندما انضم إلينا المفتش جاب فجأة، وكان لقاءً ودياً حاراً، فقد مضى وقت طويل لم نلتق به، منذ مسألة الياسمين الأصفر قبل حوالي شهر، فقال بوارو موبخا:

- ما هذه الجفوة يا جاب؟ لقد مضت فترة طويلة دون أن نراك أونسمع عنك شيئا

- لقد كنت في منطقة الشمال طوال الفترة المنصرمة.. ما أخبار الأربعة الكبار؟ مازالوا يزدادون قوة، أليس كذلك؟

- أدرك أنك تحاول السخرية يا جاب الصغير، لكن الأربعة الكبار موجودون..

- ها، لا أشك في ذلك، لكنهم ليسوا محور الكون كما تزعم

- أنت تخطئ يا عزيزي، إنني أظن أن أعظم قوة للشيطان في العالم اليوم هي الأربعة الكبار، إلى أي نهاية يسيرون وماذا يخططون؟ لا أحد يعلم، ولكن ليس هناك منظمة إجرامية تضاهي هذه المنظمة، على رأسها أذكى دماغ في الشرق، ومليونير أمريكي، وعالمة فرنسية، أما الرابع..

تداركه جاب: أعرف ذلك، أعرفه جيدا، لقد أصبح هاجسك الذي لا يفارقك، دعنا نتحدث في شيء آخر، هل تهتم بالشطرنج؟

- لقد لعبته مرات معدودة، نعم

- هل رأيت ذلك الحدث أمس؟ مباراة بين أشهر لاعبين في العالم تنتهي نهاية محزنة مثيرة: لقد مات أحدهما أثناء اللعبة

- قرأت الخبر في الصحيفة: البطل الروسي كان أحد اللاعبين، أما الآخر

صاحب الحظ السيء فهوالأمريكي جيلمور ويلسون!

- تماما، سافرونوف هزم روبستين وتربع على عرش بطولة روسيا قبل بضع سنوات، وأصبح ويلسون بطلا ثانيا..

- إنها قضية مثيرة حقا، لكن يبدوأن لك اهتماما خاصا بهذا

ضحك جاب مرتبكا من ذكاء بوارو..

- لقد أصبت يا سيد بوارو، إنني أغرق في حيرة شديدة حقا! ويلسون كان سليما معافاً، ليس عليه علامة من علامات مرض القلب، وفاته لا يجوز تفسيرها بهذه السهولة

قلت معلقا:

- هل تظن أن سافرونوف قد أبعده عن الطريق؟

لم يكترث كثيرا لسؤالي وقال:

- ربما، لكني لا أظن أن اللاعب الروسي يمكن أن يقتل رجلاً من أجل ألا يهزم في لعبة الشطرنج

بوارو: إذن فما هي فكرتك باختصار؟ من الذي سمم ويلسون ولماذا؟ أنت تشك قطعا في السم

- توقف القلب فجأة يعني أنه توقف عن الخفقان، هكذا يقول الطبيب، لكن تأويل الحدث لا يرضي أحدا حتى الطبيب نفسه

- متى تشرّح الجثة؟

- الليلة، ربما سنكتشف بعض الأسرار، لقد كانت وفاة ويلسون مفاجأة غير عادية إذ بدا طوال الوقت طبيعياً، وسقط فجأة وهويأخذ حجراً ليحركه

اعترضه بوارو:

- هناك أنواع قليلة من السموم يمكن أن تعمل بهذه الطريقة.

- هذا صحيح، هذا ما سيكشفه التشريح. لكن، من الذي يريد إبعاد ويلسون عن الطريق؟ انه رجل مسكين ومتواضع ولطيف، لقد جاء هنا للتومن الولايات المتحدة ولا أظن أن له في العالم أعداء

- أظنك تحوم حول فكرة معينة
- فكرة تسيطر علي: إن السم لم يكن يقصد به ويلسون، بل الرجل الآخر
- سافرونوف؟
- نعم هناك خصومة قديمة وعنيدة بينه وبين البلشفيين منذ اندلاع الثورة، وقد أشيع أنه قتل، لكنه في الحقيقة نفي إلى سيبيريا ثلاث سنين في ظروف قاسية يصعب تصديقها، حتى تغيرت أحواله وتبدلت أوصافه، ابيض شعره وتهدل منكباه وعندما هرب أخيرا ولجأ إلى انكلترا صعب حتى على أصحابه القدامى أن يتعرفوا عليه.

وهومنذ ذلك الحين لا يغادر بيته إلا قليلاً وقد آثر اعتزال الناس مع بنت أخيه سونيا وخادم روسي في شقة متوارية على طريق ويستمنستر، كأنه مازال مرعوبا يلاحقه الخوف من خصومة الأقدمين، وهذا سبب رفضه المتكرر للمباراة التي ألح عليه ويلسون لخوضها متحدياً، ولولا الحملة الصحفية المثيرة التي فسرت الرفض أنه منافاة للروح الرياضية لما استسلم سافرونوف بهذه السهولة.. إنني مقتنع بأن ويلسون قتل خطأ!

- ألا ينتفع شخص بموت سافرونوف؟
- حسناً، ابنة أخيه وارثه الوحيد، لقد حصل مؤخرا على ثروة ضخمة تركتها له مدام جوسبوجا التي كانت زوجة لتاجر سكير كبير في ظل النظام القديم ويبدوأن علاقة ما كانت قائمة بينها وبين سافرونوف
- أين حدثت المباراة؟
- في بيت سافرونوف الخاص ؛ لأنه كان مريضاً كما قلت لك
- وهل شاهدها عدد كبير من الناس؟
- اثنا عشر شخصا على الأقل

هز بواروراسه بحركة معبرة ثم قال:

- كم أنت مسكين يا جاب، إن عملك صعب جداً!
- إذا تأكد لدي أن السم كان هوالسبب أستطيع أن أقول: إنني سأنجح

- على ضوء افتراضك بأن سافرونوف هوالمقصود، هل خطر لك أن القاتل سيحاول مرة أخرى؟

- قطعا يا سيد، هناك رجلان يراقبان بيت سافرونوف دوما..

فقال بواروبنبرة فيها معنى الاستخفاف:

- هذا سيكون مفيدا لوأن الزائر يحمل قنبلة تحت إبطه..

- أظن أنك أصبحت مهتما بالقضية، ما رأيك أن تذهب معي إلى المشرحة لمشاهدة جثة ويلسون قبل البدء في تشريحها فربما ظهر لك دليل ما..

وافق بوارو، ولقد بدا لي أنه أصبح مأسورا تماما بالقضية الجديدة، فقد مضى وقت طويل دون أن يهتم بقضية بعيدة الصلة عن الأربعة الكبار ونشاطهم، ولقد شعرت بسرور لرؤية بوارويرجع تدريجيا لنشاطه الأول

وحين نظرنا إلى الجسد المسجى لم نلحظ أي أثر غريب ما عدا الندبة التي ظهرت على أصابع يده اليسرى، ولقد أوضح الطبيب أنه حرق وليس جرحا

انتقل بواروإلى الاهتمام بمحتوى جيوبه وقد نثرها أمامنا أحد رجال الشرطة، ولم يكن فيها سوى منديل ومفاتيح ودفتر ملاحظات وبعض الرسائل غير المهمة، لكن وجد شيئا بسيطا أثاره، فقد أمسك باثنين من حجارة الشطرنج وصاح منفعلاً:

- بيدق.. فيل.. هل كان هذا في جيبه؟

- لا، كان يمسك به بيده، وبصعوبة بالغة تم استخراجه من بين أصابعه المتشنجة تشنجاً قوياً، يجب إرجاعه للدكتور سافرونوف، انه جزء من طقم جميل منحوت من العاج!

- اسمح لي أن أعيدها أنا إلى السيد سافرونوف ولعل ذلك يكون عذراً كي أزوره

صرخ جاب مستبشرا:

- إذن فتريد الغرق في لجة هذه القضية كما أرى؟

- نعم لقد طاب لي البحث في هذه المعضلة، لقد استطعت إثارة اهتمامي يا سيد جاب

ثم عاد بوارومتجها إلى الجثة وسأل:

- هل لك أن تعلمني أكثر عن الضحية؟

- لا أظن، لم يبق شيء

- ولا حتى أنه أعسر؟

- انك ساحر يا بوارو، كيف عرفت؟ لقد كان أعسر حقا، وهل لهذا صلة بالحادث؟

- ربما لم يكن لهذا الامر بالحادث أية علاقة

في صباح اليوم التالي كنا نشق طريقنا إلى شقة سافرونوف في ويستمنستر، وقلت متأملا:

- سونيا دافيلوف، انه اسم رائع

سمع بواروحديثي، ألقى عليّ نظرة بائسة ثم قال:

- أنت هكذا دائما، رومانسي تماما، لكن حظك سيكون سعيداً إذا ظهر أن سونيا دافيلوف هي صاحبتنا الكونتيسة فيراروساكوف

وحين سمعت الاسم أصابتني هزة عنيفة واكفهر وجهي وأعادتني الذاكرة إلى أشد فترات الحرج في حياتي، لكن بواروتدارك بسرعة:

- لا، لا يا هيستنجز، إنما هي نكتة.. لا أظن أن أصابع الأربعة الكبار وصلت بنا إلى هنا..

فتح الباب خادم ذووجه متجهم كأنما نحت من خشب لا انفعال فيه ولا يكاد يبدي استجابة لأي مؤثر

قدم بواروبطاقة كتب عليها جاب بضع كلمات تعريفية، وبعدها تم اقتيادنا نحوغرفة المجلس. كانت غرفة واسعة منخفضة، على جدرانها ستائر فخمة، وتملأ زواياها تحف ثمينة، والأرض مفروشة بالسجاد الفارسي الرائع

اتجهت نحوإحدى التحف أتفحصها، وقد كانت ذات قيمة غالية وحين استدرت نحوبواروﻷحدثه وجدته منبطحا على الأرض وأصابعه تعبث بسجادة فارسية، وعيناه تمعنان النظر باهتمام بالغ، فخطر لي أن السجادة جميلة تلفت النظر حتى تحوز على هذا الاهتمام، فقلت:

- هل هي قطعة نادرة؟
- السجادة؟ إنها قطعة رائعة ولكني أبحث عن شيء آخر.. إبرة كبيرة أدخلت عمدا في وسطها. الإبرة ليست هنا الآن ولكن الثقب الذي أحدثته واضح جدا!
صوت امرأة من خلفنا جعلني أدور بسرعة نحوها بينما قفز هوعلى قدميه برشاقة، كانت هي تقف في مدخل الغرفة وعيناها علينا، كانت متوسطة الطول وذات شعر أسود قصير، يبدوأنها لا تتقن الإنكليزية تماما:
- عمي حريص وأخشى أنه لن يستطيع مقابلتكم
- هذا شيء مؤسف، هل تتلطفين بإجابتنا عن بعض الأسئلة؟ أنت الآنسة دافيلوف، أليس كذلك؟
- بلى، أنا سونيا دافيلوف، ما الذي تريد معرفته؟
- إني أتابع التحقيق في الحادث المحزن الذي أدى إلى وفاة السيد ويلسون، هلا أخبرتنا عن الحادث؟
- لقد مات بسبب توقف قلبه أثناء اللعب في المباراة
- هيأة التحقيق غير متأكدة من هذا السبب كما يبدويا آنسة
ارتعدت الفتاة وبدرت منها حركة تنبئ عن رعبها وصرخت:
- إذن فلقد كان إيفان محقا، إنها الحقيقة، يا الهي!
- من هوإيفان؟ وما هي الحقيقة؟
- إيفان هوالذي فتح لكم الباب، لقد أخبرني أن جيلمور لم يمت موتا طبيعياً، بل مات مسموما، ولم هذا المقصود.
- لم يكن هوالمقصود؟
- أجل كان المقصود هوعمي!
- لكن من الذي يريد سم عمك؟
- لا أعرف إنني أعيش في ظلام، وعمي لا يثق بي وربما يكون هذا طبيعيا، لأنه لم يرني إلا وأنا طفلة صغيرة، وجئت الآن لأعيش معه في لندن، وكل ما أعرفه أنه يعيش في رعب دائم، انه يخاف شيئا ما، إن روسيا مليئة بالجمعيات

السرية، ولقد سمعت مرة إحدى مكالماته..

ومالت برأسها نحوبواروووهمست:

- هل سمعت شيئا عن جمعية تسمى «الأربعة الكبار»؟

جحظت عينا بوارووارتجف من هول المفاجأة:

- ماذا؟ هل تعرفين الأربعة الكبار يا آنسة؟

- إذن فهي جمعية موجودة، لقد سمعت إشارة عنها وسألت عمي بعد ذلك أر رجلاً خائفا مثله: شحب لونه وارتجف عندما سمع هذا الاسم، لقد كان يخاف منهم خوفا عظيما، إني متأكدة من ذلك.. لا بد أن ويلسون قتل خطأ همس بوارو:

- الأربعة الكبار، دائما الأربعة الكبار.. إنها مصادفة مذهلة حقا، إن عمك مازال في خطر، ويجب أن أنقذه. أعيدي علي الآن سرد أحداث الواقعة، أريني رقعة الشطرنج وكيف كان يجلس الرجلان وأين، أريني كل شيء

اتجهت إلى جانب من الغرفة وأحضرت طاولة صغيرة بدا سطحها رائعاً مرصعا بمربعات من الفضة واللون الأسود على هيئة رقعة شطرنج:

- أرسلت هذه إلى عمي هدية قبل بضعة أسابيع مع رجاء حثيث أن يستعملها في المباراة القادمة التي كان سيلعبها.. كانت في وسط الغرفة هكذا

تفحص بوارورقعة الشطرنج بصورة مبالغة: من الأطراف إلى الأسفل، ورأيت في ذلك بعض المبالغة.

لم يسألها أي سؤال من الأسئلة التي كنت أشعر بأهميتها في التحقيق، وشعرت أن أسئلته عديمة الجدوى ولا مغزى لها، وأيقنت أن ذكر الأربعة الكبار جعله يفقد توازنه العقلي!

لم يسألها عن المشروبات التي قدمت ولا عن الأطعمة ولا سأل عن أشخاص الحاضرين، تنحنحت بتكلف وأنا أسأله:

- ألا تظن يا بواروهذه المرة..

تداركني بواروبعجرفة قائلاً وهويشير بيده نحوي:

- لا تظنن يا صديقي واترك الاستنتاجات لي.. يا آنسة، هل يستحيل تماما

رؤية عمك ولولبضع دقائق؟

ابتسمت ابتسامة باهتة ثم قالت:

- إنه سيراك، نعم، إن دوري أن أقابل جميع الغرباء أولا قبل المقابلة لأسباب أنت تعلمها..

واختفت في الغرفة المجاورة بعض الوقت ونحن نسمع صوت الهمس، ثم عادت لتقودنا إلى سافرونوف

كان رجلاً مهيباً يستلقي على أريكته، طويلاً هزيلاً ذا حواجب كثة متهدلة على عينيه ولحية بيضاء ووجه بدت عليه علامات الضنك والقسوة التي خلفها الزمان، وكان رأسه طويلا انه لاعب شطرنج عظيم، فلا بد أن له دماغا كبيرا واسعا يملأ هذا الرأس الضخم انحنى بواروثم قال:

- سيدي، هل لي أن أتحدث إليك قليلاً على انفراد؟

التفت نحوابنة أخيه:

- اتركينا قليلاً يا سونيا

- والآن يا سيدي، هل لديك شيء ما تود أن تقوله؟

- دكتور سافرونوف، لقد حصلت للتوعلى ثروة ضخمة فمن سيرثك؟

- لقد كتبت وصية أترك فيها كل شيء لابنة أخي سونيا

- لكنك لم ترها منذ فترة طويلة، منذ كانت طفلة، وأظن أنه من السهل أن تنتحل أية فتاة هذه الشخصية

تفاجأ سافرونوف بهذا الرأي ولكنه لم يعلق فقال بوارومواصلاً:

- يكفي أن أعطيك إشارة فقط، هذا ما أريده، لكن هل لك أن تصف لعبة الشطرنج ذاك المساء؟

- كيف تريد أن أصفها لك؟

- حسنا، إنني لا ألعب الشطرنج لكنني أفهم أن هناك عدة طرق معتادة للبدء أوالافتتاح كما تسمونها

ابتسم سافرونوف ابتسامة خفيفة:

- ها، نعم، ابتدأ ويلسون بطريقة لوبيز إحدى أسلم البدايات التي يستخدمها اللاعبون بطريقة متكررة في المباريات

- كم مضى على اللعبة عندما حدثت المأساة؟

- لقد حدث ما حدث بعد النقلة الثالثة أوالرابعة، عندما وقع ويلسون فوق الطاولة بشكل مفاجئ

نهض بوارولكي يغادر وسأل بغير اكتراث:

- هل أكل أوشرب شيئا؟

- بعض الصودا، على ما أعتقد

تريث بواروعلى عتبة البيت وهويهّم بالخروج ثم سأل:

- هل تعرف من يسكن تحتك؟

- السير تشارلز كينجويل عضوالبرلمان، لقد استأجرها مفروشة مؤخرا

- أشكرك يا دكتور

دلفنا إلى الشارع وقد أطلت علينا شمس الشتاء من بين الغيوم بوهج بارد فانفجرت في بوارو:

- حسنا... في الحقيقة يا بوارولا أظن أنك أبليت بلاءً حسناً هذه المرة، ولقد ظهر لي أن أسئلتك كانت غير مناسبة

- هل تعتقد ذلك يا هيستنجز ؟ ماذا كنت أنت ستسأل؟

حاولت أن أفكر بصياغة سؤال، وأوضحت مخططي لبواروّوهوينصت إلي باهتمام مريب حتى وصولنا إلى البيت تقريبا حيث علق ببرود:

- سؤال بارع جدا لكنه غير لازم

- غير لازم، وهل..؟

فتح الباب ودلف إلى داخل الغرفة والتقط رسالة كانت على الأرض

- إنها من جاب كما توقعت. رسالة مختصرة تفيد بأنه لم يجد آثار السم.. وهكذا ترى أن أسئلتك التي وددت لوطرحتها لا لزوم لها

- هل كنت تخمن هذه النتيجة من قبل؟

- عندما تعمل بنجاح لا يسمى هذا تخميناً

- هل تريد أن نتجادل في أمور تافهة؟ هل تنبأت بهذا؟

- نعم
- لماذا؟

أخذ بواروحجر الفيل الأبيض من جيبه ثم رفعه بين أصابعه، فصرخت فيه منفعلا:

- لم لم تعده للدكتور سافرونوف؟
- أنت مخطئ في ظنك يا صديقي! ذلك الفيل مازال في جيبي الأيسر أما هذا فهوفيل اللعبة الآخر وقد أخذته من علبة الأحجار وأنا أتفحصها..

حتى الآن لم أفهم حركات بواروهذا، وسألته متحيراً:

- ولكن لماذا أخذت الحجر الآخر؟
- قطعاً من أجل أن أقارن بينهما، إنهما يبدوان متشابهين تماما، ولكن يجب عدم التسرع بالاستنتاج. علي بميزاني الصغير لوسمحت

وبعد أن وزن الفيلين بعناية التفت إلي ووجهه يشع بفرحة الظفر:

- نعم، نعم، هذا صحيح، من المستحيل خداع هيركيول بوارو

ثم أسرع نحوالهاتف:

- هل هذا هوجاب؟ هيركيول بواروبتكلم، راقب الخادم إيفان لا تدعه يهرب، احذر أن يفلت من يديك مهما كان الثمن.. كما أقول لك..

ثم التفت إليّ قائلا: حتى الآن أراك لم تفهم الحقيقة يا هيستنجز، انتبه سأشرح لك:

إن ويلسون لم يقتل بالسم، بل قتل بالصعقة الكهربائية، خيط معدني رفيع يمر في منتصف هذا الحجر، ولقد أعدت الطاولة من قبل ووضعت بعناية فوق مكان ما على الأرض، وعندما وضع الفيل فوق إحدى المربعات الفضية انتقل التيار الكهربائي إلى جسم ويلسون وقتله على الفور، لقد كانت الطاولة خاصة معدة لهذا الغرض بعناية

الطاولة التي تفحصتها كانت نسخة أخرى مشابهة، لقد استبدلت، وبقي الحرق هوالعلامة الوحيدة على يد ويلسون اليسرى.. ألا تذكر أنه أعسر؟!

إن الأمر قد تم في البيت الأسفل، لكن أحد الشركاء - على الأقل - كان في بيت سافرونوف. الفتاة جندي للأربعة الكبار، تعمل كي ترث أموال سافرونوف

- وإيفان؟

- أشك بقوة أن إيفان ما هوإلا رقم «٤»: الشهير بأنه شخصية تقدر أن تمثل أي دور ببراعة وسهولة

تذكرت أدوار سابقة: حارس في المصحة العقلية، الجزار، الطبيب اللطيف، كلهم رجل واحد لكنهم لا يشبه أحدهم الآخر. ثم قلت في النهاية: إن ذلك مذهل.. كل شيء كان معدا، ولعل سافرونوف أحس بالخطر مما دفعه إلى التهرب من المباراة

نظر بواروالي نظرة عميقة، ثم أخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، وفجأة التفت نحوي وسألني:

- هل لديك كتاب عن الشطرنج يا صديقي؟

حاولت أن أبحث له عن الكتاب، وبعد أن وجدته سلمته له فأمسك به وغاص في كرسيه الضخم يقرأه

بعد حوالي ربع ساعة رن الهاتف، كانت مكالمة من جاب، قال: لقد غادر إيفان الشقة وهويحمل رزمة كبيرة، قفز إلى سيارة تنتظره، وبدأت المطاردة كان يحاول تضليل متعقبيه، وفي النهاية عندما ظن أنه نجح سار بسيارته نحوبيت كبير في هامستيد، البيت كان محاصراً..

سردت المكالمة على مسمع بوارو، حدق إليّ ذاهلاً مما جرى، ثم فتح الكتاب عند طريقة لوبيز في الافتتاح وقال:

- انظر.. B - kto ٣;k - qb٣،Kt - kb٣ ٢;P - k٤ ،١p - k٤

لقد كانت النقلة الثالثة إلى المربع الأبيض هي التي قتلت ويلسون، هل ينبئك هذا بشيء يا هيستنجز ؟

لم أفهم مراد بواروفصمت حائرا.. وانطلق هوشارحا نظريته:

- هناك دائما طريقتان للنظر في الأمور. افترض يا هيستنجز أنك سمعت – وأنت جالس على هذا الكرسي – صوت الباب الأمامي وقد فتح وأغلق فماذا تستنتج؟

- لا بد أن شخصا قد خرج.. هذا ما سيتبادر إلى ذهني

- هذا أحد الاحتمالين فقط، والاحتمال الآخر ليس أقل شأنا: ربما كان ذلك الشخص قد دخل، أرأيت: على نفس المقدمة بني استنتاجان يناقض أحدهما

الآخر ولكنك إذا سرت في الاتجاه الخاطئ فلا بد أن يظهر لك تناقض ما يدلك على أنك في الطريق غير الصحيح قلت: وماذا يعني ذلك يا بوارو؟

قفز بواروعلى قدميه فجأة ثم صرخ بعنف:

- هذا يعني أني كنت غبيا ثلاث مرات، هيا أسرع إلى شقة سافرونوف لعلنا نصل في الوقت المناسب

انطلقت بنا سيارة أجرة مسرعة ولم يجب بواروعن أسئلتي الكثيرة. صعدنا الدرج مسرعين، لم يكن هناك جواب على قرع الجرس وطرق الباب مرارا، وعندما ألقينا السمع سمعنا صوت أنين مكتوم ينبعث من الداخل

كان حارس العمارة يملك مفتاحا، وبصعوبة أقنعناه بفتح الباب، دلفنا مسرعين فإذا رائحة الكلوروفورم ووجدنا سونيا دافيلوف مكممة ومقيدة ومحشوة قطنية مشبعة بالكلور تسد أنفها

أسرع بوارولينقذها، واتصل بالطبيب الذي وصل بسرعة وتولى العناية بها، ثم جرى تفتيش الشقة ولم نجد الدكتور سافرونوف، فقلت:

- ما معنى هذا؟

- هذا يعني أننا ظننا الظن الخاطئ منذ البداية... لقد كنا أمام استنتاجين متساويين فاخترنا الاستنتاج الخاطئ.. ألا تذكر استنتاجك بشأن الباب الذي فتح وأغلق؟ كان يمكن لأية واحدة أن تنتحل شخصية سونيا دافيلوف لأن عمها لم يرها منذ سنوات طويلة

- نعم، وماذا في ذلك؟

- حسنا.. العكس صحيح. أيضا يمكن لأي واحد أن ينتحل شخصية العم

- ماذا؟

- لقد مات سافرونوف فعلا عند اندلاع الثورة، أما الرجل الذي زعم أنه تحمل المشاق وهرب، الرجل الذي «تغير كثيرا حتى فشل أصدقاؤه في التعرف إليه»، الرجل الذي زعم أنه حصل على ثروة ضخمة..

- من كان هذا الرجل؟

- رقم «٤»، لقد كان خائفا عندما أخبرته سونيا أنها استمعت إلى إحدى مكالماته، مرة أخرى استطاع الانزلاق من بين أصابعي. لقد أيقن أنني سأسير

في الطريق الصحيح حتى النهاية، لقد استطاع تحويل السندات ورقاً نقدياً، ثم فر بها بعد أن قام بمحاولة حبس سونيا دافيلوف وبعد أن أرسل إيفان الأمين في مطاردة تصرف عنه الانتباه

- لكن من الذي حاول قتله؟

- لا أحد، ويلسون كان الضحية المقصودة منذ البداية، ورقم «٤» لم يكن يعرف مبادئ اللعبة، من أجل هذا كان يرفض المباراة، ولقد حاول جاهدا الإفلات منها، وحين فشل وضع نهاية مأساوية لويلسون المسكين

ويلسون كان مولعا بطريقة لوبيز، ولذلك خطط رقم «٤» لموته في الحركة الثالثة قبل أن يتورط في أية صعوبات دفاعية

حاولت أن أناقش بواروبصلابة وحزم:

- ولكن ألا توجد طريقة لتجنب المباراة دون اللجوء إلى القتل كأن يزعم بأن الطبيب منعه من اللعب مثلا؟

- بلى يا هيستنجز، لديه طرق أسهل، لكنك لا تفكر بعقل رقم «٤» - المدمر - الذي لا يحرص أن يتجنب إزهاق الأرواح، بل ما كان يشغله أن يمثل دور اللاعب الكبير، فليس غريبا أنه قد حاول مراقبة اللاعبين، وزار عدة مباريات ليقلد الجلسة، وتقطيبة الحركات الاستعراضية، وهونفسه يضحك ؛ لأنه لم يكن يتقن غير حركتين أوثلاث حركات، هذه هي نفسية رقم «٤»، وهذا هوأسلوب تفكيره

هززت رأسي استهجانا..

- حسنا، أعتقد أنك محق، لكني لا أفهم كيف يغامر شخص هذه المغامرة ويخاطر بحياته في حين يستطيع تحقيق ما يريد بطريقة أسهل

ضحك بواروضحكة خفيفة وهويقول:

- وأين تكمن المخاطرة؟ هل كان يمكن لجاب أن يحل اللغز؟ رقم «٤» يثق بنفسه ولا يتعرض للمخاطرة إلا في حال أن يخطئ خطأ حقيراً

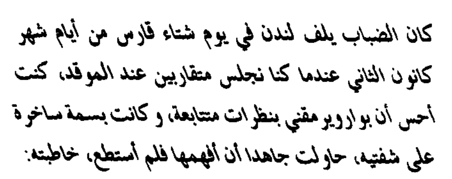
- وما هوالخطأ الحقير؟

- لقد غفل يا صاحبي عن الخلايا الرمادية، خلايا هيركيول بوارو

هززت رأسي وناجيت نفسي: بواروذومناقب حسنة كثيرة لكن التواضع ليس واحدا منها



الفصل الثاني عشر



كان الضباب يلف لندن في يوم شتاء قارس من أيام شهر كانون الثاني عندما كنا نجلس متقاربين عند الموقد، كنت أحس أن بوارو يرمقني بنظرات متتابعة، و كانت بسمة ساخرة على شفتيه، حاولت جاهدا أن أفهمها فلم أستطع، خاطبته:

- أرجوأن تزداد ثقة بقدراتي يا سيد بوارو

- لا عليك، إنما أرجع ذاكرتي إلى الماضي قليلاً حين قدمت إلي في منتصف الصيف الماضي، وقد أخبرتني يومئذ أنك تود قضاء إجازتك معي وهي شهران على أبعد حد

- لكني لا أذكر إن كنت ذكرت مدة معينة

- لقد ذكرت ذلك حقا يا صديقي، لكن لماذا غيرت خطتك؟

- هذا صحيح، لكن هل خطر ببالك أنني سأدع بوارويصارع هذا الاخطبوط العملاق الأربعة الكبار وأمضي؟

- ظننت هذا، ولقد أنست بصحبتك الكريمة، لكن ماذا ستقول زوجتك سندريلا الصغيرة كما يحلولك تسميتها؟

- هي لا تدرك ما يجري هنا لكنها تفهم دوري ولن تقبل أن أدير ظهري لصديق

- نعم، أعلم هذا، إنها زوجة وفية، لكن رحلتنا يا صاحبي رحلة طويلة

هززت رأسي وأنا أشعر ببعض الإحباط، ويكاد اليأس يسري في أعماقي رويدا رويدا، ثم حاولت التعبير عن مشاعري بتساؤلات:

- لقد مضى على هذا الصراع نحوستة أشهر، وسؤالي: أين نحن الآن؟ إنني أحسب يا بواروادائما أن علينا أن نفعل الكثير

- حماستك يعجبني يا صديقي، لكن ماذا تريدني أن أفعل؟

هذا السؤال يدعوإلى الحيرة، وجوابه ليس سهلا، لكني حاولت الإصرار بعناد، ولذلك بادرت إلى إجابة متزنة تحمل بعض جوانب القوة..

- علينا أن نبادر نحن بالهجوم ولا ننتظرهم، وأظن أن ما أنجزناه في الحقبة الفائتة شيء قليل

- ما تم إنجازه أكبر مما تظن يا هيستنجز، كشفنا هوية رقم «٢» ورقم «٣» وعرفنا الكثير عن نفسية وأسلوب رقم «٤»... ربما لم يحن الوقت الذي أستطيع فيه توجيه التهمة للسيد ريلاند أومدام أوليفير، لكن أناسا كبار قد وقعت في نفوسهم شكوك فيهما، مثل اللورد ألدينجتون الذي عرف شيئا كثيرا عن الأربعة الكبار إن الأربعة الكبار ما زالوا يستطيعون السير، لكن كشافا كبيرا يلاحقهم ويفضح أفعالهم

- وماذا عن رقم «٤»؟

- ألم أقل لك بأننا بدأنا نفهم أسلوبه وكيف يفكر؟ يمكن أن تسخر من هذا الكلام، لكن تتبع شخصية ما ومعرفة ماذا سيفعل تماما في كل الظروف مفتاح النجاح، وفي حين ازداد معرفة بدوره فإنني أسعى ألا يعرف عني شيئا، هوفي الشمس ونحن تحت الظل، وهوفي كل يوم يزدادون خشية مني وخوفا

- على كل حال فانهم الآن قد ابتعدوا عنا، وصار الخطر عنك بعيدا والطريق خلومن الكمائن

- كلا، بل هذا السكون يدهشني لا سيما أن عندهم طريقين واضحين لينالونا، وأعتقد جازما أن شيئا قد تبين لهم، لا أدري، هل فهمت قصدي؟

حاولت أن أجيبه - إذ لم أفهم كلامه - جوبا تهكميا

- هل هي آلة جهنمية من نوع غريب لم تعرف بعد؟

نفد صبر بوارو، وظهر ذلك من صوته الحاد الذي أحدثه بلسانه:

- حسناً، إني محتاج إلى نزهة في الخارج على الرغم من برودة الطقس، أظن أنك تريد قراءة الكتب مثل «مستقبل الأرجنتين» و«مرآة المجتمع» و«تكاثر الماشية» و«دليل اللون القرمزي ».

كان كتاب اللون القرمزي يستحوذ على اهتمامي فرجاني بواروأن أضع الكتب في مواضعها وأن أقضي على هذه الفوضى العارمة في البيت

خرج بواروبعد أن أبديت له اعتذاري بلطف، وتركني في متعتي التي لم يقاطعها أحد في كتابي المختار، ومع ذلك أعترف أنني كنت نصف نائم عندما سمعت طرقا على الباب فإذا السيدة بيرسون تقول:

- برقية لك يا كابتن..

وامتدت يدي على الظرف وفتحته من غير اهتمام. كانت الرقية من برونسين مدير مزرعة الماشية التي أملكها في أمريكا الجنوبية، وكانت على النحوالتالي:

«اختفت السيدة هيستنجز أمس، يخشى أن عصابة تسمي نفسها: «الأربعة الكبار» قد اختطفتها، أبلغنا الشرطة برقياً لكن لم يظهر أي أثر حتى الآن!

برونسين

تراجعت إلى الخلف ووقعت في المقعد الكبير مصعوقا أعاود قراءة البرقية مرة بعد مرة، زوجتي الآن مخطوفة وبأيدي هذه المنظمة الإجرامية.. ماذا أفعل؟ أين أنت يا بوارو؟ من الضروري قدوم بواروالآن، انه يقدر على هزيمتهم، سوف أنتظر قدومه قبل أن أحاول القيام بأي فعل، لكن سنّدريلا الآن في قبضة الأربعة الكبار

.. الباب يطرق مرة أخرى، السيدة بيرسون من جديد:

- رسالة يا كابتن، أحضرها رجل صيني بربري يقف أسفل الدرج

الرسالة كانت قصيرة:

إن أردت رؤية زوجتك فقم مع حاملٍ هذه الورقة من فورك، لا تترك رسالة لصديقك وإلا فإنها سوف تعاني أذى كثيراً.

يا ويلي! ماذا سأفعل؟ لا وقت للتفكير، يجب أن أطيع، سندريلا في قبضة الكبار الأشرار، يجب أن أقوم مع هذا الرجل حيث يقودني، ذاك فخ ومصيدة، نعم، انه الأسر الأكيد والموت المحتمل، لكن ليس لي من الأمر بد، يجب ألا أتردد وكيف أذهب ولم أترك لبواروكلمة واحدة حتى يبحث عني؟

وترددت أن أكتب أية كلمة، شعرت أن للأربعة الكبار قوة خارقة يستطيعون أن يعرفوا كل صغيرة وكبيرة، وسهل على الرجل الصيني أن يصعد ويتأكد بنفسه، لقد التزمت أوامرهم، ربما تكون الخادمة الحقيرة جندياً لهم! ومع ذلك قررت أن أترك البرقية لعل بواروإذا اطلع عليها يدرك تفصيل ما جرى لبست قبعتي وانطلقت مهرولا خارج الباب حيث كان الرجل الصيني ينتظر.. رجل طويل ذووجه صارم، ثوبه بال لكنه حسن، انحنى لي وألقى التحية، كان يتقن الإنجليزية:

- أنت الكابتن هيستنجز ؟

- نعم

- أعطني الرسالة أرجوك

لقد تنبأت بطلبه فسلمته القصاصة دون تردد..

- اليوم وردتك برقية، ووصلتك الآن من أمريكا الجنوبية، أليس كذلك؟

هنا أدركت عظمة قدرتهم على التجسس والمتابعة، ولا ينفع الإنكار، قد علموا كل شيء!

- بلى وردتني برقية حقاً..

- هلا ذهبت وأحضرتها الآن؟

شعرت بالحنق والضيق يطوق عنقي، ركضت على الدرج مرة أخرى، خطر ببالي أن أفضي للسيدة بيرسون التي تقف أعلى الدرج، لكن الخادمة الصغيرة كانت تقف قربها عبرت المجلس بعدما ترددت في إخبارها، وعدلت عن الفكرة، أخذت البرقية، ثم جاءتني فكرة.. أترك علامة يفهمها بوارو، أخذت أربعة كتب من الخزانة ونثرتها على الأرض، سوف يعرف أن ذلك شيء غير عادي، عندما يتذكر محاضرته المقتضبة قبل خروجه عن ضرورة الترتيب. ثم عمدت إلى مجراف الفحم فملأته ونثرت أربع فحمات في الموقد ودعوت الله أن يوفق بوارولمعرفة هذا الرمز!

وتدحرجت على الدرج مسرعاً، وأخذ الرجل الصيني البرقية، قرأها ثم أودعها في جيبه وأشار بحركة من رأسه أن أتبعه..

قادني في طريق طويل مملة، ركبنا القطار مرة والحافلة مرة أخرى ثم في سيارة أجرة، وكانت الطريق إلى الشرق دائماً، حتى اقتربنا من أحواض السفن فعلمت أني ذاهب إلى قلب الحي الصيني

بدأ الرعب يسري فيّ، وشعرت بالخوف أكثر عندما توقف مرشدي بعد لف ودوران في الممرات وزقاق عند بيت خرب متهاو

طرق الباب أربعا، ففتح الباب في الحال رجل صيني آخر، إذن لنا بالدخول. هنا شعرت أن إغلاق الباب خلفي كان نعياً لآخر آمالي في هذه الحياة... هاأنا ذا في الأسر قادني رجل صيني آخر عبر درجات متهاوية نحوالأسفل، إلى قبومليء ببراميل خشبية فارغة تفوح منها رائحة التوابل الشرقية أحسست بجوالشرق الغريب يحيط بي، أزاح الرجل بضعة براميل فظهرت فتحة أرضية لنفق مظلم، أمرني بالدخول، كان ممراً ضيقاً مظلماً موحشاً يؤدي إلى قبوآخر!

تقدمني الرجل وضرب على الجدار أربعاً ففتح شق من الحائط، ودخلنا في ممر قصير يؤدي إلى قاعة مدهشة كأنها قطعة من قصر من قصور ألف ليلة وليلة!

غرفة منخفضة جدرانها مكسوة بالحرير الشرقي، والأرض مفروشة بالسجاد الثمين، مضاءة بصورة باهرة يعبق الجوفيها بالعطور الشرقية، وكان فيها بضع أرائك رائعة من صنع الصين!

جاء الصوت من خلف الستارة:

هل حضر ضيفنا الكريم؟

أجاب الدليل:

- يا صاحب السعادة انه هنا

- دعه يدخل

فتحت الستارة فظهرت أريكة ضخمة ذات وسائد، قد جلس عليها رجل عظيم طويل، يلبس ثيابا مطرزة جميلة، وقد استطالت أظفاره بشكل لافت للنظر. قال وهويشير بيده:

- اجلس يا كابتن هيستنجز، تسرني رؤيتك، أشكرك على قدومك فورا

وتلبية طلبي

- من أنت؟ هل أنت لي شانج ين؟

- في الحقيقة لا. أنا واحد من أبسط خدمه ليس غير. إنني أفعل ما يأمرني كما يفعل عماله الكثيرون المنتشرون في كل مكان كما في أمريكا الجنوبية مثلا

انتفضت من مكاني وصرخت:

- أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟

- هي في مكان آمن لم يصبها أذى حتى هذه اللحظة

كانت ابتسامته الخبيثة تثير رعشة في، وأدركت أنني أواجه شيطانا فصرخت:

- ماذا تريد؟ المال؟

- عزيزي الكابتن هيستنجز .. ليست لدينا مخططات للاستيلاء على مدخراتك القليلة فاطمئن، انك لم تصب الهدف، وأظن أن صاحبك لم يكن ليوافقك هذا الرأي

- أظن أنك أردت أن أقع في شركك وقد نجحت، هاأنا ذا جئتك وعيني مفتوحة، افعل بي ما تشاء واتركها، إنها لا تعرف شيئاً بتاتاً، ولن يكون وجودها نافعا، قد أمسكتما لتمسك بي وتحقق لك ذلك

شعرت أن الرجل يرقب حركاتي بدقة بعينيه الصغيرتين وهويربت على خديه:

- لقد ذهبت بعيدا جداً، المشكلة لم تحل يا كابتن.. إن القبض عليك ليس هدفنا يقينا، بل نريد صاحبك السيد هيركيول بوارو

أطلقت ضحكة سخرية وقلت له:

- لن تستطيعوا

لكنه استمر متجاهلاً تعليقي:

- أرى أن تكتب رسالة إلى صديقك بواروتقنعه بالمجيء هنا للانضمام إليك سريعا

قلت غاضبا:

- لن أفعل الرفض فعاقبته لا ترضيك

- عليك اللعنة
- قد يكون مصيرك الموت
غالبت رعشة غريبة سرت في جسدي وأجبته متصبرا:
- تهديداتك لن تخيفني، ويحسن أن توفرها لأمثالك من الصينيين الجبناء
- إنني جاد يا كابتن.. للمرة الأخيرة: هل ستكتب هذه الورقة؟
- لن أفعل

ومن فوره صفق الرجل بيديه تصفيقا رفيقا، فإذا باثنين من الخدم انشقت الأرض عنهما ينقضان علي ويقيدان ذراعي قبل أن يسحباني إلى إحدى زوايا الغرفة حيث انهارت الأرض من تحتي.

بقيت معلقاً من يدي وجسمي مدلى في الشق المظلم أسمع تحتي صوت تلاطم المياه. وسمعت الصوت الهادئ للرجل الجالس على الأريكة:
- النهر.. فكر ثانية يا كابتن. سوف ينتهي أمرك في ثوان لا غير!

أعترف أنني لست من أشجع الرجال، وأعترف أن الخوف والرعب سيطرا علي، وأيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة، ولم أملك تهدئة صوتي المرتعش وأنا أرد عليه:
- لآخر مرة.. لا. اذهب إلى الجحيم!
وأغلقت عيني - بغير إرادة مني - ودعوت دعاء قصيراً.

الفصل الثالث عشر

تمر بالمرء أشياء نادرة في حياته يشعر فيها أنه يقف على حافة الموت، وهذا واحدمنها، فقد على حافة الموت وهـذا واحـد منها، فقد أيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة!

لكنني دهشت من الحارس يعيدني إلى مقعدي أمام الرجل العظيم، الذي خاطبني قائلا:

- أنت رجل شجاع يا كابتن هيستنجز، ونحن - معشر الشرقيين - نحترم الشجعان ونقدر الشجاعة ؛ يمكن أن أقول إنني كنت أتوقع منك فعل ما فعلت، وهذاينقلنا إلى الفصل الثاني من المأساة: انك تضطرنا لاتخاذ مسلك آخر، فهل أنت قادرعلى احتمال موت امرئ يهمك كثيرا بنفس القدر من الشجاعة؟

أصابتني رعدة قاتلةوشعرت بالرعب يعتريني فقلت بصوت مخنوق:

- ماذا تقصد؟

- لا أظن أنك نسيت زهرة الحديقة وأنها في قبضتنا

نظرت إليه نظرة أبله شارد يفيض ألما وكآبة، وقال:

- أظن يا كابتن هيستنجز أنك الآن على استعداد لكتابة الرسالةالمطلوبة.. عندي نموذج للرسالة، ما عليك إلا أن تكتب ما أمليه عليك، واعلم أنك أمام خيارين: حياة زوجتك أوموتها

تصبب العرق من جبيني وأنا أرى نفسي منساقا لإرادة هذا المجرم الكبير في حين كان يبتسم بخبث وينطق بنعومة قاتلة:

القلم جاهز في يدك، ما عليك سوى أن تكتب، وإذا لم تفعل...

- وإذا لم أفعل؟

- إذا لم تفعل فان تلك السيدة التي تحبها ستموت موتا بطيئا. إن سيدي لي شانج ين يمتع نفسه في أوقات فراغه باختراع أساليب جديدة وبارعة في التعذيب

صحت: يا الهي! أيها الشيطان!هذا لن يكون.. انك لن تفعل ذلك

- هل أسرد عليك بعضاً من أساليبه؟

وأخذ غير مكترث باحتجاجاتي يتدفق في حديثه بهدوء وسكون حتى سددت بيدي أذني وأنا أصيح فزعاً:

- هذا يكفي

- حسنا.. خذ القلم واكتب

- انك لا تجرؤ..

- كلامك حماقة وأنت تدرك ذلك جيداً. خذا القلم واكتب

- فلوفعلت فيما تعدني؟

- سوف تصبح زوجتك طليقة، سوف أرسل فورا برقية لتنفيد ذلك

- وكيف أصدقك؟

- أقسم بقداسة أضرحة أسلافي العظام، ثم لقد تحقق هدفنا من حبسها فلا حاجة لنا بها

- و.. بوارو؟

- سوف نبقيه لدينا لحين الفراغ من عملياتنا حيث سنطلقه بعد ذلك

- هل ستقسم على ذلك أيضا بحقأضرحة أسلافك العظماء؟

- لقد أقسمت مرة وهذا يكفي

غاص قلبي بين أضلعي.. كيف أخون صديقي العزيز؟

ترددت هنيهة ثم لم تلبث أن برزت أمام ناظري صورة زوجتي يعذبها هؤلاء الأشرار تعذيبا بطيئا حتى الموت. أمسكت بالقلم.. ربماأمكنني أن أوصل لبواروتحذيرا مناسبا عن طريق صياغة بعض الكلمات في الرسالة. وارتفع

صوت الرجل الصيني بلباقة وأدب:

- اسمح لي أن أملي عليك: «عزيزيبوارو.. أظن أنني أطارد رقم «٤»، جاء رجل صيني بعد ظهر اليوم وأغراني برسالةكاذبة، ومن حسن الحظ أدركت لعبته الصغيرة في الوقت المناسب وأفلت منه، ثم قلبت الطاولة عليه، وقررت أن أتعقبه على عاتقي حتى أشبع غروري

إنني أرسل إليك فتى شابا ذكيا يحمل إليك هذه الرسالة، أعطه نصف كروان، لقد وعدته بذلك إن هوسلمها بأمانة. إنني أراقب البيت ولا أستطيع مغادرته، سوف أنتظرك حتى السادسة، فان لم تأت أحاول الدخول إلى البيت بنفسي، إنها فرصة جيدة لا يصح أن نضيعها، وربما لا يجدك الفتى، ولكن إن وجدك فدعه يأتي بك هنا فورا واطمس شاربك حتى لايعرفك من يراقب البيت

المستعجل أ. هـ

كنت أزداد يأسا مع كل كلمة، وشعرت أنها حيلة ماكرة ذكية بارعة.. لقد أدركت أهمية جمع المعلومات عن حياتنابالتفصيل فقد صاغوا هذه الرسالة بالطريقة ذاتها التي كان يمكن لي أن أصوغها

الاعتراف بأن الرجل الصيني الذي زارني بعد ظهر ذلك اليوم قد سعى إلى إغوائي ذهب بالأثر المرجولتركي الكتب الأربعة على الأرض وقطع الفحم الأربع في الموقد. الوقت أيضا حدد بذكاء: سوف يندفع بواروبسرعة مع دليله البريء المظهر لدى استلامها الرسالة، وعلمت يقينا إن إصراري على دخول البيت سيدفعه إلى القدوم بأقصى سرعة.

لقد أبدى على الـدوام ارتيابا في قدراتي ويخاجله شعور بأنني أندفع إلىالخطر وأنا دون مستوى الحدث فيسرع للتدخل في الوقت الملائم!

وشعرت أني عاجز عن أن أفعل أي شيء ينقذ بوارو!

أخذ الرجل الرسالة فقرأها وهز رأسه بالرضى ثم أعطاها إلى أحد الخدم الصامتين فاختفى بها خلف الستارة المعلقة علىالجدار

والتقط الرجل نموذج برقية سلمها إلي فقرأت فيها: «أطلق سراحالطائر

الأبيض بسرعة

تنهدت بارتياح وأنا أسأل سترسلها على الفور!

ابتسم وهويهز رأسه نافيا:

- فقط عندما يصبح السيد بواروفي أيدينا ليس قبل ذلك

- ولكنك وعدت...

- ربما فشلت الخطة، وعند ذلك سنحتاج أن يقنعك طائرنا الأبيض ببذل مجهود أكبر

ازددت شحوبا وسيطر عليّ الغضب:

- يا إلهي!.. لوأنك...

- كن مطمئنا. لن تفشل هذه الخطة، وسوف يقع السيد بواروفي أيدينا وأبر بقسمي، وحتى ذلك الحين أنت في ضيافتنا وسوف يهتم خدمي بتنفيذ احتياجاتك في غيابي

وتركوني في قبوتحت الأرض وحدي حيث كنت أسمع حركات الخدم وهم ينتقلون، وتنازعتني الهواجس، قلبي على زوجتي التي تعاني من قبضة هؤلاء الأشرار، وفي نفسي شعور بالذنب القاتل نحوصديقي بوارو، ثم إنني أخاف هؤلاء الشياطين الذين اتخذوا الخداع دينا ولا يردعهم وازع ولا ضمير

قدموا لي الطعام والشراب لكنني أزحته جانبا وقد أصابني الغثيان!

وظهر الرجل الصيني مرة أخرى، كان طويلا جليلا يرفل في ثوبه الحريري الطويل، كان يوجه العمليات بحركات من يده الصفراء

أخرجوني من القبوإلىالغرفة الأولى، وكانت قريبة من الشارع يستطيع القاعد فيها مراقبة الطريق من خلال فتحات الشبابيك..

لمحت عجوزا يلبس أسمالا بالية يشير بيده إلى المنزل فعرفت أنه من العصابة. قال صاحبنا الصيني:

- هذا حسن، فقد وقع بوارو في الفخ، انه جاء وحده مع الغلام الذي يرشده، الآن حان دورك يا كابتن، عليك أن تقوم لتظهر أمامه فيراك وتشير إليه

ليدخل، فهولن يفعل حتى يراك تصنع ذلك

صحت ثائرا:

- ماذا؟

فقال بحزم:

- تذكر ثمن الفشل، إذا لم يدخل بوارو فان زوجتك ستموت سبعين مرة، هيا بسرعة

ونظرت بقلب يخفق وإحساس بالغثيان من خلال الشباك فعرفت صديقي الذي كان يمشي على طول الجانب المقابل من الشارع رغم أن ياقة معطفه كانت مرفوعة واللفاع الأصفر الثخين يغطي أسفل وجهه، لكن تلك المشية هي مشية بواروذاك الرأس البيضاوي هورأس بوارو

كان بواروقادما قطعا ليساعدني بوفاء وشهامة لا يشك بأن في الأمر حيلة، وإلى جنبه كان يمشي غلام لندني وجهه متجهم وعليه ثوب بال

توقف بواروكان ينظر ناحية البيت بينما كان الولد يتكلم بلهفة ويشير، وكان الوقت قد حان لألعب دوري

خرجت إلى القاعة، وبإشارة من الرجل الصيني فتح أحد الخدم مزلاج الباب، وهمس عدوي:

- تذكر ثمن الفشل

خرجت عند العتبة، أشرت إلى بواروبيدي فأسرع يقطع الشارع ناحيتي:

- ها.. إذن فكل أمورك كما يرام يا صديقي؟ لقد بدأت أقلق، هل دخلت البيت؟ هل البيت خالي؟

قلت بهمس أجتهد أن أجعله مطمئنا:

- أجل، لا بد أن فيه طريقا سريا، ادخل ودعنا نلتمسه

عدت إلى درجات العتبة، وهم بواروليتبعني ببراءة.. ثم بدا أن شيئا ما يدور في رأسي، إنني أحاكي دوريهوذا الاسخريوطي الذي وشى بالسيد المسيح، وفجأة صرخت:

- ارجع يا بوارو! ارجع من أجل حياتك، انه فخ، لا تهتم بي، اهرب في الحال!

في اللحظة التي تكلمت أوصرخت محذرا أمسكت بي يد كأنها كماشة، وقفز أحد الخدم الصينيين أمامي لكي يمسك بوارو

وقفز بواروإلى الخلف ورفع يده، ثم فجأة تصاعد دخان كثيف حولي يخنقني، يقتلني، أحسست أني أنهار.. كان هذا هوالموت

ثم عدت إلى وعيي وأنا أتألم، رأسي يدور، رأيت أول ما رأيت وجه بوارويقعد مقابلي يراقبني بوجه قلق، صرخ فرحا حين رآني أنظر إليه:

- آه لقد عاد وعيك، كل شيء جيد يا صديقي المسكين!

- أين أنا؟

- أين؟ في بيتنا

نظرت حولي.. أجل، هذاالمحيط أعرفه، وفي الموقد كانت قطع الفحم الأربع التي نثرتها

- نعم، لقدأحسنت صنعا، كانت هذه الفكرة ممتازة هي وكرة الكتب، لوأنهم قالوا لي: «إن صديقك هيستنجز غير واسع العقل، أليس كذلك؟» فسوف أقول: كلا، بل أنتم مخطئون

- إذن فقد فهمتها؟

- أجل، لقد أخذت حذري وأنفقت الوقت اللازم لكي أحكم خطتي، نقلك الأربعة الكبار بالقوة، لماذا؟ ليس لأنهم يخافونك ويريدون أن يبعدوك عن الطريق، كلا، بل جعلوك طعما ليصطادوا به بواروالعظيم.. كنت أنتظر هذا منذزمن فأعددت له

ولما وصل الصغير البريء رسولا منهم فهمت كل شيء وأسرعت معه، ومن حسن الحظ أن سمحوا لك أن تقف على العتبة، فقد كنت أخشى أن أُفشل في العثورعليك بعد أن أتخلص منهم

قلت بوهن:

- هل قلت: تتخلص منهم؟ وحدك؟

- لا شيء من أمرهم يحتاج ذكاءً، إذا استعد المرء من قبل فكل شيء عندئذ يهون، ذلك شعار الكشافة.. انهم يقولون: «كن مستعدا» أليس كذلك؟

منذ وقت غيربعيد قدمت خدمة لكيمياوي شهير له عمل في الغازات السامة أثناء الحرب، فابتدع لي قنبلة صغيرة بسيطة يسهل حملها وما علي إلا أن أرميها فتنفجر، يتصاعد منها دخان كثيف فقد الوعي..

وفي الحال صفرت قليلاً فأسرع بعض زملاء جاب - وكانوايراقبون البيت قبل أن يصل الولد إلى بيتنا وتتبعوا طريقنا حتى لا يم هاوس - حيث تولوا الأمر برمته!

- لكن لماذا لم تفقد أنت وعيك؟

- صاحبنا رقم «٤» الذي ألف تلك الرسالة المحبوكة ذكر ملاحظة ساخرة عن شاربي فأخفيته - ومعه كمامة التنفس - تحت وشاحي الأصفر

صحت بلهفة:

- إنني أتذكر..

ومع كلمة أتذكر عادني الرعب والخوف على سندريلا، تراجعت وأنا أئن! لا بد أني فقدت وعيي مرة أخرى بعض الوقت، صحوت فإذا بواورويدفع لي كأس الليمون..

- ماذاهناك يا صديقي؟ ماذا هناك؟ قل لي

أخبرته بالأمر كلمة كلمة وأنا أرتعش، صاح بوارو:

- يا صديقي! لقد عانيت كثيرا لكنني لم أكن أعرف شيئا من هذافاطمئن، كل شيء على ما يرام

- هل ستجدها؟ لكنها في أمريكا الجنوبية وحين نصلها تكون قد ماتت منذ زمن طويل، والله وحده يعلم كيف ستموت

- لا، لا، انك لم تفهم، بل هي آمنة وفي صحة حسنة، بل لم تقع في أيديهم بتاتا..

- لكن البرقية من برونسين؟

- لا، أنت لم تستلم منه برقية، ربما استلمت برقية من أمريكا الجنوبية باسم برونسين، هذا مختلف، قل لي: ألم يظهر لك أن منظمة مثل هذه لها فروع في كل أنحاء العالم يمكن أن تضغط علينا بواسطة فتاة صغيرة مثل سندريلا التي تحبها

كثيرا؟

- لا، أبدا

- حسناً، أما أنا فقد عرفت ذلك ولم أقل لك شيئا لأنني لم أرد أن أزعجك من غير ضرورة، لكنني اتخذت إجراءاتي الخاصة

إن رسائل زوجتك تبدوكأنها كتبت كلها من المزرعة، لكنها كانت في مكان آمن دبرته أنامنذ ثلاثة شهور..

نظرت إليه طويلاً..

- حقاً؟

- أجل، إنماعذبوك بكذبة!

أدرت رأسي، وضع بوارويده على كتفي، كان في صوته شيء ما لم أسمعه أبدا من قبل:

- أنت لا تحب أن أعانقك.. سوف أتصرف على الطريقةالانكليزية، لن أقول شيئا أبدا، لكن دعني أقل: ما أسعده رجلاً عنده صديق مثل صديقي!



الفصل الرابع عشر

خاب ظني كثيرا من نتيجة هجوم بوارو بالقنبلة على البيت في الحي الصيني، فقد هرب رأس العصابة!

عندما هرع رجال جاب لما صفر بواروووجدوا أربعة رجال صينيين في القاعة فقدوا وعيهم، لكن الذي هددني بالموت لم يكن فيهم، فتذكرت حينئذ أنني حين أجبرت على الخروج إلى عتبة البيت بقي هذا الرجل في المؤخرة، وبذلك ظل خارج منطقة الخطر الذي أحدثته القنبلة ففر من مخرج من المخارج الكثيرة التي عرفناها فيما بعد

لم نعلم من الأربعة الذين وقعوا في قبضتنا شيئا، والتحقيق الواسع الذي أجرته الشرطة لم يكشف صلة لأحدهم بالأربعة الكبار

لقد كانوا فقراء من الحي، وقد ادعوا جهلا تاما باسم لي شانج ين، إنما استأجرهم رجل صيني للخدمة في البيت، ولم يكونوا يعلمون شيئا من شئونه الخاصة!

في اليوم التالي تعافيت تمامامن أثر القنبلة إلا من صداع خفيف، فنزلنا إلى الحي الصيني وتفحصنا البيت الذي استُنقذتُ منه..

كان المبنى يتألف من بيتين مصعدين متصلين معا بممر من تحت الأرض، كانا مهجورين لا فرش فيهما، وقد غطيت الشبابيك المكسورة فيهما بستائر بالية..

اطلع جاب على الأقبية وكشف المدخل المؤدي إلى القبو الذي لبثت فيه نصف ساعة عسيرة، وأكد التحقيق أنها غرفة جهزت خصيصا من أجلي في الليلةالسابقة الحرير الذي كسا الحيطان والأريكة والسجاد الممدود على الأرض

كان متقنا. قد لا أكون من الخبراء العارفين في الفن الصيني إلا قليلاً ، ولكني أملك أناجزم أن كل قطعة في تلك الغرفة كانت بالغة القيمة عظيمة الشأن!

أجرينا تفتيشا دقيقا للبيت، وكنت أرجوأن نجد وثائق مهمة، ربما قائمة بأسماء عملاءالأربعة الكبار، أورسائل في خططهم، لكننا لم نجد شيئا إلا رسائل كان الرجل الصيني يرجع إليها عندما كان يملي عليّ رسالتي إلى بوارو، كانت تتألف من سجل كبيرعن كل عمل عملناه وعن شخصيتنا ومكامن ضعفنا!

كان بواروميتهجا من هذا جدا، كأنه طفل، أما أنا فلم أحسب أنها ذات سيما أن الرجل الذي جمعها - كائنا من كان - قد أخطأ في بعض آرائه بصورة مضحكة، وقد أوضحت ذلك لصديقي ونحن عائدان إلىبيتنا، قلت:

- بوارو، أنت تعرف الآن ماذا يظننا خصمنا؟ يبدو أنه بالغ كثيرا في تقدير قوتك العقلية واستخف بي! لا أدري كيف يمكن أن تنفعنا هذه المعرفة؟

ضحك بواروبطريقة مزعجة:

- أنت لم تفهم يا هيستنجز، إننا نستطيع الآن أن نعد أنفسنا لمواجهة أساليبهم في الهجوم حيث أدركنا بعض أخطائنا، مثلا ياصديقي: نعلم أنك يجب أن تفكر قبل أن تعمل، فإذا رأيت مرة أخرى فتاة ذات شعر أحمرفي مشكلة فيجب أن تنظر إليها بارتياب، أليس كذلك؟

كان في رسائلهم إشارات سخيفة عن تهوري المحتمل، وأشاروا أنني كنت سريع التأثر بالفتيات ذوات الشعرالأحمر، وكان فيها إشارة تعني بواروفقدرت على الرد عليه:

- وماذا عنك؟هل ستعالج «غرورك المفرط» و«أناقتك الشديدة»؟

لم يكن بوارومسرورامن ردي السريع

- بلا ريب يا هيستنجز انهم يخدعون أنفسهم في بعض الأمور، وسيعلمون ذلك في الوقت المناسب، وفي غضون ذلك علمنا بعض الأشياء وعرفنا أنه يلزمنا الاستعداد

كانت الكلمة الأخيرة هذه البديهية المفضلة لديه منذ عهدقريب، وقد بدأت أكره معناها، وما زال قائلا:

- هيستنجز، إننا نعرف شيئا ما وهذا فيه خير، لكن ينبغي أن نعرف أكثر

- في أي اتجاه؟

استرخىبواروفي كرسيه وعدل علبة الكبريت التي ألقيتها على الطاولة بإهمال، وأحسست أنه يستعد لإلقاء خطبة طويلة:

- يجب يا هيستنجز أن نواجه أربعة أعداء، أربعةأشخاص مختلفين، رقم «١» عرفناه ولم نعامله، بالمناسبة، لقد بدأت يا هيستنجز أفهمه فهما حسنا: عقل شرقي حاذق، إن كل ما لقيناه كان من تدبير عقل لي شانج ين

رقم «٢» ورقم «٣» لهما نفوذ ومرتبة عليا، وهما لذلك في حصانة من هجومنا، غير أن هذا سلاح ذوحدين: انهما مكشوفان فينبغي أن يقدرا حركاتهما بعناية، وهما - مع ذلك - قادران على النجاح لما لهما من شهرة ومنصب. أما رقم «٤»...

تغير صوت بوارو قليلاً وتابع:

- أما رقم «٤» فان نجاحه فيخفيه.. من هو؟ لا أحد يعرف! ما هوشكله؟ لا أحد يعرف! كم مرة رأيناه؟ خمسا، أليس كذلك؟ فهل يستطيع أحدنا أن يجزم بأنه سيعرفه إذا رآه؟

تذكرت الرجال الخمسة المختلفين: حارس المصحة القوي الجسم، جيمس الرجل الذي كان يلبس المعطف المزرر في باريس، الخادم، الطبيب الشاب الباسم في قضية الياسمين الأصفر، والبروفيسور الروسي.. لم يشبه أي واحد من هؤلاء الخمسة الآخر، فقلت:

- لا، لا دليل عندنا بتاتا!

ابتسم بوارو:

- أرجوك لا تدع لهذا اليأس الشديد سبيلاً إليك، إننا علمنا شيئا أوشيئين.. علمنا أنه رجل متوسط الطول أشقرالشعر قليلاً ، لوكان رجلاً طويلا أسمر ما استطاع أن يخدعنا في هيئة الطبيب الأشقرالقصير، ولابد أن يكون أنفه صغيرا مستقيما، لأن الأنف الكبير لا يصير صغيرا، ثملا بعد أن يكون رجلاً

شاباً ليس أكبر من الخامسة والثلاثين، إذن فقد وصلنا إلى شيئ اما: رجل بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، متوسط الطول، لونه طبيعي، خبير في (الماكياج)، ليس لديه أسنان طبيعية

- ماذا؟

- أجل يا هيستنجز، الحارس كانت أسنانه مكسورة صفراء، وفي باريس كانت أسنانه بيضاء مستوية، وحين كان طبيباكانت أسنانه بارزة قليلاً ، ولما كان سافرونوف كانت أنيابه طويلة، لا شيء يغيرالوجه مثل طقم مختلف من الاسنان، هل ترى أين يقودنا كل هذا؟

- لا أدري

- يقولون: «حرفة الرجل مكتوبة في وجهه »..

- مجرم؟

- خبير في فن الماكياج أوانه كان ممثلاً في يوم ما

- ممثل؟

- أجل، فنان بارع، الممثلون صنفان: صنف يطيعه دوره وصنف يطيع دوره، صنف يؤثر في الدور وصنف يتأثر به ويقلب شخصيته حسب دوره. يجب أن نبحث عن رقم «٤» بين ذلك الصنف السابق، انه فنان بارع يلبس الدور الذي يمثله بإتقان

- إذن أنت تظن أنك تقدر أن تتبعه في المسرح؟وددت لوأن هذه الفكرة جاءتك من قبل، لقد ضيعنا الكثير من الوقت

- كلا ياصديقي، لم نضيع وقتنا، عملائي مشغولون بالبحث منذ بضعة شهور، جوزيف ايرونز واحد منهم، هل تذكره؟ لقد جمعوا قائمة بالرجال الذين تنطبق عليهم الأوصاف المطلوبة: شباب في الثلاثين: ذووموهبة في التمثيل، تركوا المسرح في السنين الثلاث الأخيرة بصورة قاطعة

فقلت بتشوق:

- حسناً؟

- كانت القائمة طويلة، منذ زمن ونحن مشغولون بالحذف وأخيرا أخرجنا

منها أربعة أسماء... هاهي ذي يا صديقي

أعطاني قصاصة من الورق قرأتها جهرة:

إيرنستلوتريل: ابن كاهن في الشمال، غريب الأطوار، طرد من مدرسته، ذهب ليعمل في المسرحوهوفي الثالثة والعشرين، مدمن مخدرات، يفترض أنه سافر إلى أستراليا قبل أربع سنين ولم نستطع متابعته منذ أن غادر انكلترا، عمره الآن اثنان وثلاثون عاما، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات، حليق، شعره بني، أنفه مستقيم، البشرة شقراء، العينان رماديتان

جون سانت مور: اسم منحول، الاسم الصريح مجهول، كأنه من أصل لندني، عمل في المسرح منذ أن كان طفلا حيث كان يؤدي أدواره في مسرح المنوعات، انقطعت أخباره منذ ثلاث سنوات، في الثالثة والثلاثين، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات، نحيف، عيناه زرقاوان، لونه أشقر

أوستين لي: اسم منحول، اسمه الصريح أوستين فولي من أسرة طيبة، كان يحب شكلاً واحداً من التمثيل، وكون لنفسه شخصية متميزة، له سجل حربي متألق، مثل في مسرحيات عدة، كان يتحمس لتتميل قصص الجريمة، أصابه انهيار عصبي شديد منحادث سيارة قبل ثلاث سنوات ونصف ولم يظهر على المسرح بعدها، لا أثر له يدل علىمكانه الآن، عمره ٣٥ سنة، طوله ٥ أقدام و٩ بوصات ونصف، بشرته شقراء وشعره بني وعيناه زرقاوان

كلود داريل: يفترض أنه اسمه الصريح، أصله مجهول، مثل في مسرح المنوعات ومسرح الذخائر، ليس له أصحاب مقربون، كان في الصين عام ١٩١٩، عاد عن طريق أمريكا، مثل أدوارا قليلة في نيويورك، في إحدى الليالي لم يظهر على خشبة المسرح ولم يسمع عنه شيء بعدها، تقول شرطة نيويورك بأن اختفاءه غامض جدا، عمره ٣٣ سنة، شعره بني، بشرته شقراء، عيناه رماديتان، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات ونصف البوصة.

قلت وأنا أضع الورقة:

- هذامثير مدهش! اذن فهذه نتيجة التحقيق الذي دام شهوراً؟ وهذه

الاسماء الاربعة، أي منها تشك فيه؟

أشار بواروبيده بإيماءة نصيحة:

- يا صديقي.. إن هذاسؤال مبكر في الوقت الراهن. لا بد أنك لاحظت أن كلود داريل كان في أمريكا والصين، وهي حقيقة ذات دلالة، ربما، ولكن لا يجدر أن نسمحلأنفسنا بالتحيز لهذه النقطة تحيزاً مفرطاً، ربما كان ذلك مجرد مصادفة

- وما هي الخطوات التالية؟

- الامور تسير بنظام، ستظهر كل يوم إعلانات مكتوبة بحذر، أصدقاء وأقرباء أحد هؤلاءالأربعة سيتصل بمحام في مكتبه، حتى اليوم يمكن أن يكون... أوه.. انه التليفون، ربما يكون الرقم خطأ كالعادة وسوف يعتذرون عن الإزعاج، وربما يكون شيء قدظهر

عبرت الغرفة ورفعت السماعة:

- نعم، نعم، هنا بيت السيدبوارو، أنا كابتن هيستنجز، ها! السيد ماكنيل؟ نعم، الآن أخبره ونأتي حالاً.

رددت السماعة ورجعت إلى بوارو:

- بوارو، محاميك السيد ماكنيل اتصل: امرأة صديقة لكلود داريل! الآنسة فلوسي مونرو! ماكنيل يريد أن تذهب إليه

صاح بوارو:

- فورا

واختفى في غرفة نومه ليعود وعلى رأسه القبعة. وفي الحال ركبنا سيارة حملتنا إلى وجهتنا، ودخلنا مكتب السيد ماكنيل الخاص

على المقعد المواجه للمحامي كانت امرأة دميمة تجاوزت سن الشباب، شعرها أصفر مقزز فيه خصلات مجعدة فوق كل أذن، جفناها مصبوغان بالسواد، لكنها لم تنس على كل حال وضع الحمرة وأحمر الشفاه

ماكنيل:

- هاهو ذا السيد بوارو، سيد بوارو، هاهي ذي الآنسة مونروالتي تلطفت

كثيرا بنا واستجابت لنا

- ها.. ذلك لطف كبير!

ثم تقدم بواروقال بحماسة غير آبه بمشاعر السيد ماكنيل:

- إن الآنسة تزهر كالوردة في هذا المكتب الممل العتيق!

احمر وجه الآنسة مونروخجلا وابتسمت ابتسامة متكلفة وهي تعلق قائلة:

- لا تمزح يا سيدبوارو، إني أعرفكم أيها الفرنسيون

- يا آنسة، نحن لسنا كالإنكليز بلهاء أمام الجمال، وأنا لست فرنسيا، أنا بلجيكي

- لقد ذهبت إلى أوستند بنفسي

- إذن فأخبرينا عن السيد كلود داريل

- عرفت السيد كلود داريل يوما ما، وقد رأيت إعلانك، وحيث إنني لا أعمل الآن في المحل، قلت لنفسي: انهم يريدون أن يعرفوا عن المسكين العجوز كلودي، فلعل وراءه ثروة لم يعرفوا وارثها، يجب أن أذهب في الحال

نهض السيد ماكنيل:

- حسنا يا سيد بواروهل أترككم وحدكم؟

- أنت لطيف جدا، لكن ساعة الغذاء تقترب وقد خطرت ببالي فكرة صغيرة، ربما تريد الآنسةأن تأتي معي لتناول الغذاء

تلألأت عيناها، وخطرت ببالي أنها كانت في ضائقةمالية وأن وجبة مشبعة لا ترفض وخرجنا جميعنا في سيارة أجرة نحوأحد مطاعم لندن الفاخرة، وعندما وصلنا طلب بواروغذاء لذيذا بدأت تأكل وجبتها بشهيةفيما طرق بواروبحذر موضوعه المهم:

- مسكين السيد داريل، انني آسف لأنه ليس معنا الآن

تنهدت الآنسة مونرو:

- صدقت، الحق أنه ولد مسكين! ترىماذا جرى له؟

- قد مضى وقت طويل على رؤيتك له، أليس كذلك؟

- آه! منذ سنين! لم أره منذ الحرب.. كلودي كان ولدا مرحا لم يتحدث عن نفسه

أبدا، لكن كل شيءسيبين اذا كان هووريثا مفقودا.. وهل هوارث شرعي يا سيد بوارو؟

- للأسف مجرد تركة، والمسألة هي في تحديد الهوية، لذلك يلزمنا البحث عن شخص كان يعرفه جيدا، أنت كنت تعرفينه جيدا، أليس كذلك يا آنسة؟

- لا بأس يا سيد بوارو، فأنت رجل لطيف تحسن اختيار طعام السيدات بأفضل من صغار هذه الأيام السفهاء، وأظن كونك فرنسيا غير مخيف.. آه! أنتم - أشارت بأصبعها نحوه - أيها الفرنسيون أشرار، أشرار

عارضها بوارومتلطفا:

- لا، لا يا آنسة، لا تقولي ذلك. الآن هلا وصفت لي السيد داريل هذا؟

- ليس بالطويل ولا بالقصير، أنيق، عيناه رماديتان فيهما زرقة، شعره أشقر، فنان وأي فنان! لم أر مثله في الناس، ولولاالغيرة لاصبح رجلاً مشهورا، آه يا سيد بوارو، كم نعاني نحن الفنانين من الغيرة والحسد، أذكر مرة في مانشستر..

- هذا كلام جميل يا آنسة في أمر السيد داريل، النساء لا ينسين شيئا ويلاحظن ما يفوت الرجال، لقد عرفت امرأة عرفت رجلاً من بين اثني عشر رجلا، هل تدرين كيف؟ لقد لاحظت سمة مميزة تظهر على أنفه إذا غضب! هل فيالرجال من يلاحظ شيئا كهذا؟

صرخت مونرو:

- ألا نستيطع ذلك؟ نعم، نحن نلاحظه.. أتذكر كلودي، الآن بدأت أفكر بذلك: كان كثير العبث بالخبز الذي علىالطاولة، كان يضع قطعة صغيرة بين أصابعه ويفركها ليأكل لب الرغيف، قلد رأيته يفعل ذلك مئة مرة، وأستطيع أن أعرفه من هذه العادة التي فيه

- وهل تحدثت معه عن عادته هذه يا آنسة؟

- لا؛ فأنت تعرف طبع الرجال: لا يحبون أن تنتقدهم لاسيما ان بدا لهم أنك تنهاهم عن فعلها، لم أقل كلمة واحدة البتة، لكني كنت أضحك فيسري كثيرا، انه لم يكن يشعر بفعله

هز بواروراسه موافقا، ورأيت يده ترتعش قليلاً حين مدها إلى صحنه، قال:

- وخط اليد وسيلة لتحديد الهوية، لا شك أن عندك رسالة كتبها السيد داريل..
هزت رأسها أسفا:
- لم يكتب لي سطرا في حياته أبدا
- هذا مؤسف
قالت مونروفجأة:
- لكن عندي صورة..
- عندك صورة؟
قفز بوارومن كرسيه مذهولاً:
- صورةقديمة، حين كان عمره ثمانية أعوام..
- لا ضير إن كانت عتيقة أوباهتة، هلاأعطيتني إياها يا آنسة؟
- أجل
- ربما تأذنين أن أستنسخ منها، إن ذلك لايأخذ وقتاً
- أجل إذا كنت تحب ذلك
نهضت مونرو، قالت بمكر:
- يجب أن أنصرف، أسعدني لقاؤك أنت وصاحبك يا سيد بوارو..
- والصورة؟
- سأبحث عنها هذه الليلة، أظن أنني أعلم مكانها، سوف أرسلها لك فورا
- ألف شكريا آنسة، أنت لطيفة جدا، أرجوأن نأكل الغذاء معا في وقت قريب!
- أنا علىاستعداد متى شئت..
- لكني أجهل عنوانك

وبكبرياء شامخة سحبت مونروبطاقة من حقيبتها وأعطتها له، كانت بطاقة وسخة بعض الشيء، وكان العنوان المطبوع مشطوبا كتب فوقه عنوان آخر بقلم رصاص. ثم مع انحناء ودعنا المرأة وذهبنا، وسألنا بوارو:
- هل تظن حقاً أن هذه الصورة خطيرة؟
- نعم يا صديقي.. «الكاميرا لا تكذب»، نستطيع أن نكبر الصورة ونضبط

النقاط البارزة، ونعلم كثيرامن التفاصيل: الاذن التي لا يستطيع أن يصفها لك أحد، حقا، ما أعظم هذه الفرصةالتي جاءت لنا، من أجل هذا اتخذت احتياطاتي

عبر نحوالهاتف وطلب رقم وكالة التحري الخاصة، أوامره كانت واضحة وحاسمة: اثنان من الرجال يذهبان الىعنوان ذكره ويراقبان مونرو، يتابعانها حيث تروح وتجيء، ويؤمنان لها الحماية اللازمة

رد بواروالسماعة وعاد إليّ.

- وهل هذا لازم يا بوارو؟

- ربما، لا ريب أنني أنا وأنت مراقبان، وسوف يعرفون من كان يأكل معنا غداءاليوم، ربما أحس رقم «٤» بالخطر

مضت عشرون دقيقة، رن الهاتف، وعندماأجبت عليه سمعت على الطرف الآخر صوتاً جافاً:

- أهذا هوالسيد بوارو؟ هنامستشفى سانت جيمس، قبل عشر دقائق أحضرت لنا امرأة شابة، الآنسة فلوسي مونرو.. حادث سيارة.. إنها تسأل عن السيد بواروبإلحاح، يجب أن يأتي حالا، فربما لاتعيش طويلاً.

أخبرت بوارو، أصبح وجهه شاحباً:

- هيا يا هيستنجز، هياننطلق كالبرق

وفي غضون عشر دقائق وصلنا إلى المستشفى، سألنا عن مونرو، صعدنا إلى جناح الحوادث لكن الممرضة قابلتنا عند الباب.. قرأ بواروالخبر فيوجهها!

- ماتت؟

- قبل ست دقائق

وقف بواروومصعوقا وبدأت الممرضة تكلمه بلطف وهي لا تدري حقيقة حزنه:

- إنها لم تعان ألما، ظلتفاقدة للوعي، دهمتها سيارة، ولم يتوقف السائق.. آمل أن أحداً سجل رقم سيارته

قال بواروهمسا: الأحداث تتسارع ضدنا!

- تود أن تراها؟

تقدمتنا الممرضة وتبعناها.. المسكينة فلوسي مونرو: ممددة والحمرة علىشفتيها وشعرها المصبوغ! إنها ترقد بسلام وعلى وجهها بسمة!.. همس بوارو:

- أجل.. الأحداث تجري ضدنا

وفجأة رفع رأسه كأن فكرة ما خطرت له وقال: لقد اقتربت نهاية هؤلاء الأشرار! أقسم لك وأنا أقف هنا بجوار جثة هذه المسكينة أني لن أرحمهم عندما يحين الوقت!

- ماذا تقصد؟

لم يجب بواروبشيء، بل التفت إلى الممرضة وهويطلب بلهفة بعض المعلومات، وأخذ أخيرا أخيرا قائمةبالأغراض التي وجدت في حقيبتها. صاح بواروصيحة مكبوتة وهويقرأها..

- هل ترى يا هيستنجز ؟ هل ترى؟ لا ذكر لمفتاح المزلاج، ولا شك أن معها مفتاحا لا، لقد صرعت بدم بارد وأول رجل انحنى فوقها أخذ المفتاح من حقيبتها، لكن الوقت ما زال معنا، فقد لا يجد ما يريده في الحال

وحملتنا سيارة أخرى إلىعنوانها: بيوت قذرة متجاورة في حي قديم!

مضى وقت طويل حتى أذن لنا أن ندخل بيتها، لكننا كنا قانعين أن أحدا لا يستطيع أن يغادر ونحن نرقب البيت من الخارج

أخيرا دخلنا، وكان واضحاً أن شخصاً قد دخل قبلنا هنا ؛ لأن محتوى الأدراج والخزائن كله مبعثر منثور، والأقفال مكسورة والطاولات مقلوبة، كانت عجلة الباحث قبلنا عنيفة جداً

بدأ بواروالبحث في الحطام.. فجأة، وقف منتصباً يصرخ ويمسك إطاراً عتيقا لصورة فوتوغرافية.. أما الصورة نفسها فقد اختفت! قلبه ببطء.. كان على ظهر الإطار لاصق مدور صغير، ملصق يبين السعر، قلت له:

- ثمنه أربعة شلنات

- أبصر جيدا يا عزيزي هيستنجز، انه لاصق جديد، ألصقه الرجل الذينزع الصورة والذي سبقنا هنا، كان يعلم أننا سنحضر، لذلك ترك هذه لنا.. انه رقم

«٤».. كلود داريل بالتأكيد!



الفصل الخامس عشر

بدأت أدرك أن بواروقد تغير بعد الوفاة المأساوية لمونرو. حتى ذلك الحين كانت ثقته بنفسه التي لا تهتز قد قاومت التجربة، لكن الإجهاد الطويل أخذ منه مأخذا فكان يبدو مهموماً كئيباً كأنما أعصابه توشك أن تنهار في هذه الأيام كان هائجاً كأنه قط يتجنب كل نقاش في الأربعة الكبار، لكني كنت أعلم أنه كان نشيطا في المسألة سراً.

كان يـزوره كثيراً رجـال غرباء، لكنه لم يتعطف علي بأي بيان لهذا النشاطالخفي، وفهمت أنه كان يبني دفاعا جديدا وسلاحاً مواجهة بمساعدة هؤلاء الرجال ذوي المظاهر المثيرة للاشمئزاز

وذات مرة - مصادفة - رأيت ما هومدون في دفترحساباته المصرفي، وكان قد طلب مني أن أتحقق من أمر ما، فعرفت أنه قد دفع مبلغا كبيرا من المال، كبيرا جدا حتى على بوارو الذي يكسب المال عادة بسرعة، دفعه لرجل روسي ما أطول اسمه!

ومازال يكتم الأمر، كان يكرر دوما قوله: «إياك ألاتقدر عدوك يا صديقي، تذكر ذلك دائما» ففهمت أن ذلك كان الشرك الذي يجتهد أن يتجنبه بأي ثمن

وهكذا سارت الأمور حتى نهاية آذار، وفي أحد الأيام قال بوارو كلاما أرعبني

- هذا الصباح يا صديقي عليك أن تلبس أفضل ثيابك، سنزور وزير الداخلية

- حقا؟ هذا مدهش! وهل هوالذي استدعاك؟

- كلا، بل أنا طلبت مقابلته، لعلك تتذكر أنني قد أديت له خدمة وهومتحمس بسببها وسوف ينفعني حماسه، وكما تعرف، رئيس وزراء فرنسا السيد ديسحارديويزور لندن الآن، وسوف يحضر اجتماعنا الصغير هذا الصباح

اللورد سيدني كراوثر وزير الداخلية رجل معروف مشهور، في الخمسين من عمره، ذوأسلوب مرح وعيون رمادية لاذعة، استقبلنابتلك الطريقة المرحة الأنيسة، وكان في البيت رجل طويل نحيف يقف وظهره إلى الموقد، ذولحية سوداء ووجه رقيق قال كراوثر:

- سيد ديساجرديو، هذا هوالسيدهيركيول بوارو، لعلك سمعت به

انحنى الرجل الفرنسي ومد يده يصافحه، وقال بفكاهة:

- أجل قد سمعت بالسيد بوارو، ومن ذا لا يعرفه؟

احمر وجه بوارومن البهجة، قال:

- هذا لطف منك سيدي!

ثم تقدم رجل من زاويةبجانب خزانة كتب طويلة.. كان ذاك هوالسيد إنجليز صديقنا القديم، وصافحه بواروبشدة. قال كراوثر:

- والآن، سيد بوارو، نحن في خدمتك، لقد فهمت أن لديك معلومات في غاية الأهمية تريد إطلاعنا عليها

- أجل يا سيدي... في هذاالعالم اليوم منظمة واسعة في الجريمة رؤوسها أربعة أفراد اسمهم الأربعة الكبار، رقم «١» رجل صيني اسمه لي شانج ين، رقم «٢» المليونير الأمريكي آبي ريلاند، رقم «٣» امرأة فرنسية، أما رقم «٤» فلدي من الأسباب ما يدعوني الى الاعتقادبأنه الممثل الإنكليزي الغامض كلود داريل

وهؤلاء الأربعة قد اتحدوا لكي ينشروا الفوضى ويقوضوا النظام الاجتماعي القائم في العالم ويستبدلوا به نظاما استبداديا تكون لهم من خلاله السيطرة

همس الفرنسي:

- مستحيل أن يتورط ريلاند في شيء كهذا! الفكرة خيال بالتأكيد

استمع إلي يا سيدي أسردعليك بعض أفعالهم

كان الوصف الذي قدمه بواروساحراً، ولقد كنت أعرف كلامه تفصيلاً لكنه أثارني من جديد وأنا أسمع وصف مغامرتنا الخطرة!

نظر السيد ديسجاردريوفي صاحبه كراوثر بعد أن أنهى بواروحديثه، وأجاب كرواثر على النظرة:

- نعم يا سيد ديسجاردر يويجب علينا أن نقر بوجود الأربعة الكبار، لقدسخرت سكوتلانديارد من لك في البداية، وزعمت الشرطة أن السيد بوارويبالغ كثيرا، غير أني شخصيا أشعر أن كلامه صحيح، وقد أجبرت الشرطة وسكوتلانديارد على التسليم بأكثر من هده الفرضيات

بين بوارولهما عشر نقاط بارزة طلب مني الا أعلنها، وتضمنت الكوارث التي أصابت الغواصات وسلسلة حوادث الطائرة وهبوطها الإجباري، وحسب كلام بواروكانت جميعا من فعل الأربعة الكبار، وشهد بان عندهم أسرار علميةلا يعرفها العالم كله، وهذا جعل رئيس وزراء فرنسا يسأل بواروسؤالاً كنت أنتظره:

- قلت بأن العضوالثالث من هذه المنظمة امرأة فرنسية، هل تعرف اسمها؟

- انه اسم مشهور جدا يا سيدي، اسم ذائع الصيت، رقم «٣» ليس إلا مدام أوليفير!

ولما ذكر اسم العالمة الكبيرة خليفة المدام كوري قفز السيدديسجاردريومن كرسيه، احمر وجهه وقال:

- مدام أوليفير؟ مستحيل! هذا سخف! إن الذي تقوله إهانة..

هز بواروراسه بلطف لكنه لم يجبه. نظر ديسجاردريوإليه منذهولا لبضع دقائق، ثم التفت إلى وزير الداخلية وضرب على جبينه بصورة ذات دلالة، قال:

- السيد بواورجل عظيم، لكن حتى العظماء يصيبهم الهوس أحيانا، هذا معروف، أليس كذلك يا سيد كراوثر؟

صمت وزير الداخلية قليلاً ثم أجابه بلسان ثقيل:

- لا أدري، كنت دائما وما زلت أثق بالسيد بوارو، لكن هذا جدير بالملاحظة!

- ديسجاردريو: لي شانج ين أيضا، من ذا سمع به من قبل؟

وجاء الصوت من السيد إنجليز على غير توقع:

- أنا سمعت..

حدق إليه الرجل الفرنسي ثم نظر بهدوء كانه وثن صيني، أوضح وزير الداخلية:

- السيد إنجليز هوأعظم مرجع لدينا في شئون الصين

- إنجليز: لقد ظننت أنني الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يعرف عنه، إلى أن جاءني السيد بوارو. لا تخطئيا سيد ديسجاردريو، في الصين رجل واحد ذوأثر اليوم: لي شانج ين، وقد يكون أذكىدماغ في العالم اليوم على الإطلاق

جلس السيد ديسجاردريوكالمصعوق، لكنه ملك قواه وقال:

- ربما يصح شيء مما تقول يا سيد بوارو، ولكنك مخطئ بالتأكيد فيما يتعلق بمدام أوليفير.. إنها ابنة فرنسا المخلصة للعلم!

هزبواروكتفيه استهجاناً ولم يجب

ران الصمت بعض الوقت، ثم نهض صديقي وعليه ملامح الوقار:

- هذا كل ما أردت قوله يا سادة، إني أحذركم، دار في خلديأنكم ربما لا تصدقونني، لكنكم قد تصبحون أكثر حذرا، إن كلماتي ستدخل في الأعماق وكل جديد سيؤكد لكم الحقيقة، كان ضروريا أن أتحدث الآن إليكم، فلعلي لا أستطيع لقاءكم بعد هذا اليوم!

- تقصد..؟

- أقصد أنني أصبحت في خطر دائم منذ فضحت اسم رقم «٤»، سوف يسعى لتدميري بأي ثمن، وليس اسمه «المدمر» من فراغ أوضعفيا سادة. أسلم عليكم، وإليك يا سيد كراوثر هذا المفتاح وهذا الظرف، كتبت كل ملاحظاتي عن القضية وأفكاري حول أحسن السبل لمواجهة الخطر الذي قد يعم العالم يوماما ووضعتها في خزانة، فإن قتلت يا سيد كراوثر فأنت صاحب الحق للتصرف بتلك الأوراق، يوماً طيباً!

خرجنا وخرج إنجليز معنا، وقال بواروونحن نسير:

- ما خاب ظني في المقابلة لم أتوقع إقناع ديسجاردريو، لكنني ضمنت أنني اذا مت فإن معرفتي لا تموت، لقد أقنعت واحدا من اثنين... لا بأس!

- إنجليز: إنني معكما تعرف، وسوف أسافر إلى الصين إن نجوت بنفسي
- هل هذا عمل حكيم؟
- لا، لكنه واجب، وعليّ أن أعمل ما أستطيع
- آه إنك رجل شجاع، ولولم نكن في الشارع لعانقتك
ظننت أن إنجليز بدا مطمئنا.. وهدر قائلا:
- قدلا أكون في خطر وأنا في الصين أكثر من الخطر الذي تواجهه أنت في لندن
- ربما، أرجوأن لا يذبحوا هيستنجز أيضا.. إن هذا يزعجني كثيرا!
قاطعت حديثهما اللطيف لأقول بأنني لا أعتزم ترك نفسي تدبح، وبعد ذلك بقليل تركنا إنجليز، سرنابصمت بعض الوقت لكن بواروقطعه وقال عبارة مفاجأة تماما، قال:
- أظن أن علي أن أقحم أخي في هذه القضية
- أخوك؟ لم أعرف أن لك أخا من قبل
- ياهيستنجز، الا تعلم أن رجال التحري جميعا لهم إخوة؟
بواروله طريقة عجيبةأحيانا تجعل المرء في حيرة مايدري أجاد هوأم هازل! سألته وأنا أحاول أن أوافقه:
- وما اسم أخيك؟
- أشيلي، يعيش قرب منتجع صحي في بلجيكا
- وماذا يعمل؟
- لا شيء ؛ لأنه مريض، لكن قدرته على الاستنتاج ليست دون قدرتي
- وهل يشبهك؟
- أجل لكنه ليس أنيقا ويحلق شاربه
- أكبر منك؟
- لقد صادف أنه ولد في نفس اليوم الذي ولدت فيه!
صحت مندهشا: توأمان!
- تماما يا هيستنجز، إنك تقفز إلى النتيجة الصحيحة بدقة! ها نحن أولاء قد

عدنا إلى البيت ثانية، دعنا نشتغل في الحال بتلك القضية السهلة، قضية عقد الدوقة

لكن قدر لقضية عقد الدوقة أن تتأجل بعض الوقت، فقد كانت عندنا قضية من نوع آخر، فما إن دخلنا إلى البيت حتى جاءت السيدة بيرسون وأخبرتنا أن ممرضة اتصلت وأنها تريد رؤية بوارو

دخلنا فوجدناها تجلس على مقعد كبير تقابل الشباك.. امرأة جميلة في ربيع العمر، عليها زي كحلي، كرهت الحديث في المسألة قليلاً لكن بواروطمأنها فأخذت تحكي قصتها:

- أرسلني مستشفى لارك سيتر هود لكي أمرض عجوزا في هيرتفوردشير اسمه السيد تيمبلتون، وكان بيته يثير البهجة وأهله فرحون، الزوجة: مدام تيمبلتون أصغر كثيرا من زوجها، وله ابن من زواجه الأول يعيش هناك، ولكنه لم يكن على وفاق تام مع زوجة أبيه، وهولم يكن مختلا تماما ولكنه من النوع البطيء التفكير

حسناً.. لقد كان العجوز مريضا، وبدا لي مرضه منذ البداية غامضا، وفي ذلك الوقت بدا سليما معافاً، ثم - فجأة - أصابته نوبة معويةمع ألم وتقيؤ، لكن طبيبه بدا راضيا عن حالته ولم أستطع أن أقول شيئا، بيد أني لم أملك نفسي من التفكير في حالته ثم.

سكتت واحمر وجهها، وقال بوارو:

- حدث شيء أثار شكوكك؟

- نعم

ثم سكتت وقد بدا أن الاستمرارصار صعباً عليها..

- عرفت أن الخدم ينقلون كلاماً أيضا..

- عن مرض السيد تيمبلتون؟

- آه! كلا، بل عن هذا الشيء الآخر!

- السيدة تيمبلتون؟

- نعم

- ربما مع السيدة تيمبلتون مع الطبيب؟

كان بواروذا حاسةخارقة في هده الأمور... ألقت الممرضة عليه نظرتة شكر وأكملت:

- كانوا ينقلون كلاماً، ثم ذات يوم رأيتهما بعيني في الحديقة..

توقفت المسألة هكذا،لقد كانت زبونتنا في كرب شديد لأنها انتهكت الحشمة، فلم نسألها مادا رأت حياء، لكنها حتما قد رأت ما فيه برهان

- النوبة ساءت وساءت، الدكتورتريفز زعم أن كل مايصيب العجوز طبيعي متوقع وأنه ربما لا يعيش طويلا، لكنني لم أرشيئا من هذا أبدا من قبل طوال خبيرتي في التمريض، بل بدا لي أنه شكل من..

أطرقت مرة أخرى وهي مترددة، فتدخل بوارومساعدا:

- التسمم الزرنيخي..

هوت رأسها موافقة

- والمريض قال بعد ذلك شيئاً عجباً، قال: سيقتلونني أربعتهم! سيقتلونني!

- ماذا؟!

- كانت هذه هي كلمته ياسيد بوارو، كان يكابد ألماً عظيماً آنذاك ولا يعي - على الأغلب - ما يقول

- ماذا تظنين معنى قوله «أربعتهم»؟

- لست أدري، لعله كان يقصد زوجته وابنه والطبيب والآنسة كلارك صاحبة زوجته، ربما كان يتوهم أنهم جميعا متحدون عليه

- نعم، ربما.. وماذا عن الطعام؟ ألم تأخذي حذرك في شأنه؟

- إنني دائماأفعل ما أستطيع لكن السيدة تيبلتون تلح أحيانا كي تطبخه هي بيدها، ثم أحيانا أكون في عطلة

- تماما، وأنت لست على يقين من الأمر كي تبلغي الشرطة

أظهروجه الممرضة خوفها عند هدا السؤال..

- أصابت السيد تيمبلتون نوبة بعدشربه صحنا من المرق، فأخذت حثالة المرق وأحضرتها معي، لقد ألغيت اليوم زيارة إلىأمي المريضة من أجله..

أخرجت قنينة ملئت سائلا قاتما وأعطتها بوارو:

- أحسنت يا آنسة، سوف نحللها الآن، إذا رجعت بعد ساعة فنكون قد حسمنا شكوكك

وكتب بوارواسمها وبعض المعلومات عن مؤهلاتها ثم سطّر رسالة وبعثهامع قنينة المرقة، وبينما كنا ننتظر النتيجة كان بوارويسلي نفسه بالتحقيق في أوراق الممرضة مما أدهشني، فقال:

- أنا أعمل جيدا يا صديقي كي أكون حذرا، لا تنس أن الأربعة الكبار يتعقبوننا عرف بواروأن اسمها مابل بالمر، كانتتعمل في مهد لارك، ترى لماذا أرسلت إلى تيمبلتون؟ قال وعينيه تلمع:

- حسنا والآن هاهي بالمر قد رجعت وها هو ذا بيان التحليل..

- هل فيه زرنيخ يا سيدبوارو؟

- لا!

دهشت أنا والممرضة كثيرا، وأكمل بوارو:

- ليس فيه زرنيخ لكن فيه أنتيمون، سنذهب حالاً إلى هيرتفوردشير، أدعوالله ألا نكون متأخرين

لقد قرر بواروأن يقدم نفسه كرجل تحر، لكن حجته الظاهرة أنه أتى يسأل مدام تيمبلتون عن خادمة كانت تعمل عندها، ويزعم أن لها علاقة بسرقة الجواهر وصلنا بيتهم المسمى «إلمستيد» في ساعة متأخرة، بعدما سمحنا للممرضة أن تسبقنا بعشرين دقيقة حتى لا تثار شكوك حول وصولنا سوية السيدة تيمبلتون امرأة طويلة عبوس يبدوفي عينيها القلق استقبلتنا ولاحظت مسحة من الخوفسرت على وجهها عندما أعلن بواروعن هويته. لكنها أجابت سؤاله في شأن الخادمة بجلد، ثم بدأ بواروحديثه في تاريخ طويل لقضية تسميم وصفتها امرأة مذنبة، عيناه لم تغادر وجهها وهويتحدث وقد حاولت هي كبت هيجانها الذي كان يزيد، ثم فجأة، أسرعت من الغرفة بعذر ضعيف..

لم نترك وحدنا طويلا، فقد دخل علينا رجل قوي الجسم شاربه أحمر

خفيف وعلى أنفه نظارة، قدم نفسه قائلا:

- دكتور تريفيز. طلبت مني مدام تيمبلتون أن أعتذر لكما فهي في حالة سيئة، إنها متوترة بسبب قلقها علىزوجها وقد نصحتها أن تذهب للنوم حالا، لكنها ترجوكما أن تبقيا! لقد سمعت بك ياسيد بواروونريد أن ننتفع بحضورك.. ها هو ذا ميكي..

ودخل علينا فتى بطيئ الحركة، يدل وجهه المدور وحاجباه المرتفعان على حماقة ودهشة دائمة، ابتسم بصورةعجيبة وهويصافحنا. يبدوأنه كان ذلك الابن بطيء التفكير!

وقمناجميعا لوجبة العشاء، وعندما انصرف الدكتور ليأتي ببعض الطعام، صارت ملامح وجه الفتى متغيرة بصورة مخيفة: مال للأمام وهويحدق ببوارو، وقال وهويهز رأسه:

- أنت جئت من أجل أبي، أعـرف.. أعـرف أشياء كثيرة، لكن لا أحد يظننيأعرف، أمي ستفرح حين يموت أبي، وتستطيع أن تتزوج الدكتور تريفيز، إنها ليست أمي.. إني لا أحبها

كان كل شيء مرعبا، ومن حسن الحظ أن عاد الدكتور تريفيزقبل أن يلفظ بواروكلمة معه، وكان علينا أن ننشغل بحديث آخر

وفجأة أسندبواروظهره إلى الكرسي وجعل يتأوه ووجهه يتلوى من الألم.. صرخ الدكتور:

- سيدي العزيز، ماذا أصابك؟

- تشنج مفاجئ.. إنني معتاد عليه. لا، لا أحتاج إلى مساعدة منك يا دكتور، هل يمكن أن أستريح في الطابق الأعلى؟

قبل طلبه فورا وصحبته إلى الأعلى حيث سقط على سريره وهويئن بشدة، لقدذهلت قليلاً لكني فهمت بسرعة أن بواروكان يمثل وأن غايته أن يترك وحده في الطابق الأعلى بجوار غرفة المريض، ولقد كنت مستعدا حين قفز واقفا في اللحظة التي كناوحدنا:

- أسرع يا هيستنجز، الشباك... اللبلاب هناك في الخارج، نستطيع أن ننزلق

عليه إلى الأسفل لنهرب قبل أن يشكوا في غيابنا!

- ننزل إلى أسفل؟

- أجل، لا بد أن نخرج من هنا حالا، هل رأيته في العشاء؟

- الطبيب؟

- لا، تيمبلتون الفتى، عادته العجيبة في الخبز! ألا تذكر ما قالته مونرولنا؟قالت بأن كلود داريل كانت فيه عادة تفتيت الخبز على الطاولة ليأكل لب الرغيف، إنهامؤامرة محكمة يا هيستنجر، وهذا الفتى المعتوه هوعدونا الخبيث.. رقم «٤»... أسرع!

انزلقنا على نبات اللبلاب ونزلنا بسكون وبالكاد أدركنا قطارالساعة،٨,٣٤ الأخير الذي أوصلنا إلى البلدة في الساعة الحادية عشرة مساء

قال بواروومتأملا: مؤامرة! ترى كم واحداً منهم شارك فيها؟ أشك في أن أسرةتيمبلتون جميعا ليسوا سوا عملاء للاربعة الكبار، هل أرادوا هكذا بسهولة أن نقع فيشركهم أم أنها كانت أكثر مكرا؟ هل كانوا.. ماذا؟ إنني أتساءل!

ظل يفكركثيرا..

وعندما وصلنا إلى مسكننا أبقاني عند باب غرفة الجلوس:

- تنبه يا هيستنجر، عندي شكوك، دعني أدخل أولا..

دخل، ثم دهب حول الغرفةكأنه قطة غريبة بحذر وهدوء تام، وراقبته قليلاً وأنا في مكاني جانب الحائط، قلت وقد نفذ صبري:

- كل شيء على ما يرام يا بوارو

- عسى أنه كذلك لكن دعنانتأكد

- سأشعل نارا وأدخن بغليوني.. هاهي ذي أعواد الثقاب قد تركتها أنت هذه المرة ولم تعدها إلى مكانها، وهوالأمر الذي كنت تعيبه علي

مددت يدي، فسمعت صرخة بوارو، قفز نحوي، لمست يدي علبة الكبريت.. ثم.. وميض من اللهب الأزرق.. ضربة على الأذن، وظلام!

وعيت لأجد صديقنا الدكتور ريدجوي يجثوعلى ركبتيه فوقي تلمح في

وجهه الطمأنينة، قال:

- كن هادئا، لقد وقع حادث، أنت بخير

- وبوارو؟

- أنت في بيتي اطمئن

شعرت خيفة، هروبه من الجواب ألقى في نفسي خوفا رهيبا..

- بوارو؟ أين بوارو؟

أدرك أن علي أن أسمع جواباً فقال:

- لقد نجوت بمعجزة، أما بواروفلم ينج

انفجرت صرخة من بين شفتي:

- لم يمت؟ لم يمت؟

حنى ريدجويرأسه.. وجلست أنا وقلت بضعف:

- ربما يكون بواروقد مات.. لكن روحه.. ستعيش! سأتابع عمله، الموت للأربعة الكبار! ثم سقطت على ظهري فاقدا الوعي



الفصل السادس عشر

لا أحتمل الكتابة عن تلك الأيام التي حدثت من شهر آذار.. بوارومات! لقد كان في علبة الكبريت لمسة شيطانية، كان محتما أن تفلت أعوادها غير المرتبة اهتمامه فيسرع لكي ينسق أعوادها المبعثرة، وهكذا! سببت اللمسة الانفجار!

الحق أنني أنا الذي عجلت في الكارثة، وهذا ملأني ندماً لا ينفع ولا يدفع!

قال الدكتورريدجوي إن نجاتي كانت معجزة، لكن ارتجاجاً طفيفاً أصابني، وبعد أن استرجعت وعيي مشيت مترنحا إلى الغرفة المجاورة قبل حلول ظلام اليوم الذي تبع الحادث، ورأيت بحزن عميق تابوتاً من خشب الدردار ترقد فيه بقايا واحد من أروع الرجال الذين عرفتهم!

ومنذ أول لحظة عاد فيها وعيي كان عندي هدف واحد..الانتقام لموت بواروأن أصيد الأربعة الكبار بلا رحمة.. وظننت أن الدكتور ريدجوي يفكر مثلي، ولكن الطبيب الطيب بدا فاترا ولم أدر لماذا؟.. «عد إلى أمريكا الجنوبية»، هكذاظل ينصحني.. لماذا؟ لقد قال بأن بواروالخارق قد فشل فهل أنجح أنا؟

لكنني أصررت وتجاهلت كل تشكيك في قدراتي.. لقد عملت مع بواروطويلافعرفت منه أسلوبه، وشعرت بالقدرة التامة على متابعة العمل الذي رسمه.. لقد قتل صديقي قتلة قاسية، فهل علي أن أؤوب إلى أمريكا دون جهد لإحضار قتلته أمام العدالة؟

قلت هذا كله وأكثر منه لريدجوي الذي كان ينصت لي قبل أن يعلق قائلا:

- مهما يكن فإني أنصحك، ولوكان بوارونفسه بيننا لكان ألح عليك بالعودة،

أتوسل إليك باسمه يا هيستنجز أن تترك هذه الفكرة المتهور وترجع إلى مزرعتك!

وما زلت على جوابي فلم يقل شيئا وهز رأسه بأسف!

ومضى شهراستعدت فيه عافيتي وعند نهاية شهر نيسان سعيت وعقدت لقاء مع وزير الداخلية فكان رأي السيد كراوثر يذكرني بكلام الدكتور ريدجوي، ففي حين كان يشكر لي كان يرفض عرضي بلطف وحذر، أوراق بواروصارت في حوزته وقد أكد لي بأنه سيتخذ كل عمل جائزلمواجهة الخطر الذي يدنوويقترب

ومع هذا العزاء البارد حملت على الاقتناع، أنهى السيد كراوثر اللقاء بأن الح علي أن أعود إلى أمريكا.. لقد رأيت كل المسألة لا ترضيني.. والآن يجب أن أصف جنازة بوارو

كان إحتفالا وقوراً مهيباً وكلمات الإجلال التي قيلت كانت فخمة جزيلة، لقد جاء المعزون من أماكن شتى وتوافدوا إلى المكان الذي اختاره صديقي لنفسه.. بلد إقامته! لقد غلبني الحزن وأنا أقف عند جانب المقبرة وذكرت جميع تجاربنا المختلفة والأيام السعيدة التي عشناها معا

في بداية شهر أيار رسمت خطة الحملة: لن أفعل خيراً من اتباع خطةبواروفي الإعلان من أجل جذب كلود داريل، ونشرت إعلانا في عدد من الصحف الصباحية، وكنت أجلس في مطعم صغير في سوهووأرى تأثير الإعلان من خلال قراءتي للصحف

فجأة صدمتني فقرة صغير صدمة عنيفة.. «اختفى السيد جون إنجليز من السفينة «شنغهاي» بعد مغادرتها ميناء مرسيليا بقليل، ورغم أن الجوكان هادئاتماما لكن يخشى أن الرجل المسكين قد سقط من السفينة»، وانتهت الفقرة بحديث مقتضب حول خدمة السيد إنجليز الطويلة والمميزة في الصين

كان الخبر غير سار، أدركت أن وراء مقتل إنجليز دافعا شريرا، لم أصدق أبدا النظرية القائلة بأنه ماتبحادث، قطعا كان موته من فعل الأربعة الكبار الملعونين!

وبينما كنت مذهولا من المصيبة أقلب المسألة كلها في دماغي داخلني خوف من سلوك الرجل الجالس مقابلتي ولم أكن قد أعرته كبير اهتمام. كان

نحيفاً أسمر متوسط العمر شاحب البشرةذا لحية خفيفة، جلس مقابلي بهدوء تام حتى أنني لم أحس بقعوده، لكنه الآن صار يفعل فعلاً غريباً قطعاً: مال إلى الامام ونثر عمداً أربع كومات من الملح حول حافة صحني، قال بصوت كئيب:

- اسمح لي: إنهم يقولون إن تقديم الملح هونوع من المواساة للغريب، أرجوأن تكون فهمت..

صنع - في دلالة مؤكدة - عند صحنه ما فعله لي، إن الرمز «٤» كان واضحا!

نظرت إليه بإمعان، لم أستطع أن أرى أنها شبه تيمبلتون الصغير ولا جيمس الخادم أوأيا كان من الشخصيات الأخرى المختلفة التي صادفتنا، لكنني كنت جازما بأنني أواجه رقم «٤» المروع نفسه، الصوت كان فيه شبه ضعيف من صوت الرجل الغريب ذي المعطف المزرر الذي زارنا في باريس

نظرت حولي مترددا حول رد فعلي المناسب، وبدا أنه يقرأ أفكاري، تبسم وهزرأسه بلطف وقال:

- لا أنصحك بهذا، تذكر ما حدث من العجلة في باريس، طريقه روبي مفتوحة تماما، أنت تضمر الشر قليلاً يا كابتن هيستنجز ..

قلت وأنا أختنق من الغضب:

- تبا أيها الشيطان!

- غضبان.. أنت تافه غضبان، لابد أن صاحبك الراحل أخبرك بأن الرجل الذي يظل هادئاً يجني دائما منفعة عظيمة..

صحت فيه:

- تجرؤ أن تتكلم عن الرجل الذي قتلته بتلك الطريقة القذرة...

قاطعني قائلاً:

- جئت هنا من أجل هدف سلمي، لكي أنصحك بأن تعود إلى أمريكا الجنوبية فورا، إن فعلت ذلك فستنتهي المسألة بقد ما يعني ذلك للأربعة الكبار ولن نؤذيك أنت ولا زوجتك، أعدك بذلك

ضحكت بازدراء:

- وإذا رفضت؟
- هذا ليس أمرا، دعنا نقل بإنه.. تحذير، التحذيرالأول، أنصحك ألا تضيعه.
ثم نهض وانسل خارجا بسرعة نحوالباب قبل أن أقدر نيته، لحقته لكن حظي كان تعيسا، فقد اصطدمت برجل بدين سد الطريق، ولمافككت نفسي منه كان طريدي يجتاز مدخل الباب، وقابلني نادل يحمل كومة كبيرة من الصحون صدمني أيضا دون إشعار، وما إن وصلت الباب حتى كان الرجل قد اختفى!
كان اعتذار النادل سمجا، والرجل البدين جلس بهدوء على طاولة وطلب غذاء، ربما كان كلا الحادثين مصادفة، لكنني كنت أعرف جيدا أن عيون الأربعة الكبار في كل مكان!
لقد شدني تحذير الرجل، لكنني سأعمل.أوأموت من أجل قضية صالحة
ولم تكن هناك إجابات مفيدة عن الإعلانات، إنما وردتني إجابتان من ممثلين عملا معداريل قليلاً ولم يكونا يعرفانه عن قرب ولم يذكرا هويته أومكانه!
مرت عشرة أيام ولم تظهر علامة أخرى من الأربعة الكبار، وكنت أقطع هايد بارك وأناحيران أفكر، ناداني صوت امرأة جاهر، يبدوأنها أجنبية..
- أنت كابتن هيستنجز، أليس كذلك؟
توقفت سيارة أجرة فاخرة جنب الرصيف، وأطلت منهاامرأة تلبس ثوبا أسود وعقدا من اللؤلؤ رائعا.. عرفتها: الكونتيسة فيرا روساكوف.. جندية الأربعة الكبار!
كان لبواروولع خفي بالكونتيسة، شيء ما فيهاجذب الصغير، كان في لحظات الحماس يقول بإنها امرأة تساوي ألفا من النساء ولو كانت تعمل ضدنا..
روساكوف: آه، لا تعبر الشارع، عندي شيء مهم جدا وأريد أن تسمعه، وإياك أن تسعى إلى اعتقالي لأن ذلك سيكون غباء منك، أنت غبي لأنك عازم ألا تطيع تحذيرنا، وهذا هوتحذيرنا الثاني جاءك معي: «غادر إنكلترا في الحال، فعودك لا يفيد، لن تجني شيئا هنا أبدا»
- كلكم مهتمون بإخراجي من البلد، عجبا!

هزت روساكوف رأسها استهجانا..

- أنا أظن أنك أحمق، كنت سأتركك هنا تعمل بسعادة، لكن الرؤساء يخافون كلمة منك ربما تساعد أولئك الذين هم أكثر ذكاء منك..

كظمت غيظي، كلمتها هذه أزعجتني لأن فيها إشارة استخفاف بي. قالت:

- هذا ما سوف يكون، من السهل أن ينفوك، لكنني أشفق على الناس أحيانا، إنني أناشدك، إن لك زوجة صغيرة حسناء في مكان ما، أليس كذلك؟ ولسوفيسعد الرجل الصغير في قبره أنك لم تمت، لقد كان يعجبني، كان ذكياً! لولم تكنقضية أربعة مقابل واحد لعظمناه كثيرا.. لقد كان بواروأستاذي، لقد أرسلت إكليلاإلى الجنازة إعلانا بإعجابي، إكليلا كبيرا من الورود القرمزية التي أحبها

استمعت إليها في صمت وحقد وما زالت تتكلم:

- أنت كالبغل، حين يحرك أذنيه ويرفس، حسناً، فقد أبلغتك تحذيري فتذكر، الإنذار الثالث سيأتي من يدالمدمر..

وأشارت إلى السائق فانطلقت السيارة، لاحظت رقمها لكن لا أرجوأملا من هذا ؛ الأربعة الكبار لا يتركون هذه التفصيلات

ذهبت إلى البيت هادئا قليلاً ، لقد عرفت من السيل الجارف نم كلماتها حقيقة واحدة: حياتي في خطر! لا، لن أتخلى، بل أمضي بحذر شديد وأحترس..

وبينما أنا أعرض كل هذه الحقائق وأدرس خير طريقة للعمل رن الهاتف:

- نعم.. مرحبا.. من يتكلم؟

- مستشفى سانت جيلز، عندنا رجل صيني طعن بالسكين وأحضر إلينا، لن يعيش طويلا، لتصلنا بك لأننا وجدنا في جيبه قصاصة ورق عليها اسمك وعنوانك..

- سأحضر فوراً

كنت مذهولاً!

مستشفى سات جيلز بجانب أحواض السفن، إذنفلعل الصيني يكون قد خرج لتوه من سفينة.. أم أن الأمر كله فخ؟ مهما يكن فربمايكون لشانغ ين يد

فيما يجري! لن تضرني زيارة المستشفى، عسى أن يبوح لي الصينيالمحتضر بشيء أستنير به، لكنني سأتكلف الحماقة وأنا - في الواقع - يقظان

وصلت المستشفى، وبعد أن عرفت بنفسي قادتني بعض الممرضات فوراً إلى جناح الحوادث

رأيت الصيني راقداً بدون حركة، جفناه مغمضان وصدره ينبض نبضاضعيفا يدل أنه مازال يتنفس. وقف عنده الطبيب وأصابعه تجس النبض، همس:

- كأنه ميت، هل تعرفه؟

- لا، لم أره من قبل أبداً

- إذن ما شأن اسمك وعنوانك في جيبه؟ أنت كابتن هيستنجز، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنني لا أدري..

- عجبا! أوراقه تثبت أنه كان خادماً عند رجل يدعى إنجليز، موظف مدني مسرح، وأنت تعرفه، أليس كذلك؟

- لقد رأيت خادم إنجليز من قبل لكني لا أستطيع أن أميزصينيا عن آخر، لابد أنه كان مع إنجليز في طريقه إلى الصين وبعد حصول الكارثة رجعهنا برسالة قد تكون خاصة بي، يجب أن أسمع الرسالة.. سألت الطبيب:

- هل هوفي وعيه؟ ألا يستطيع الكلام؟ السيد إنجليز كان صديقي القديم ولعل هذا المسكين قدأحضر لي رسالة منه، إذ يعتقد أن السيد إنجليز قد اختفى عن ظهر سفين قبل عشرة أيام..

- إنه واع لكن ربما لا يستطيع النطق، فقد دما كثيرا، أستطيع أن أعطيه حقنة منشطة لكننا عملنا كل ما بوسعنا

وحقنه الطبيب بإبرة تحت الجلد وبقيت عنده راجيا أن يتكلم كلمة واحدة أوإشارة ربما تكون مهمة عندي، ولكن الدقائق مرت ولم يتحرك

وفجأة، خطرت ببالي فكرة مقلقة..

ألم أكن قد وقعت في فخ؟ فليكن هذا الرجل انتحل شخصية خادم إنجليز وأنه في الحقيقة جندي للأربعةالكبار، ألم أقرأ مرة أن كهنة في الصين يقدرون

أن يتظاهروا بالموت؟ أوأبعد من ذلك: لعل لي شانج ين قد أمر جماعة من جنوده الذين يحبون أن يتظاهروا بذلك.. لابد أن أحذر..

في اللحظة هذه تحرك الرجل في سريره، فتح عينيه، همس كلاما وعينه علي، لم يقم بأي حركة تدل أنه عرفني، ولكني أدركت حالا أنه يريد أنيكلمني، وسواء كان صديقا أوعدوا، ينبغي أن أستمع إليه

انحنيت فوق السريرلكنني لم أفهم شيئا من صوته المتهدج، سمعت كلمة «هاند» ولم أفهمها، ثم سمعت كلمة أخرى «لارغو»، حدقت إليه بذهول وسألته:

- «هاندلز لارغو»؟

طرف أجفانه بسرعة كأنه وافق، ثم أضاف كلمة إيطالية:

- «كاروزا»؟

ثم تراجع فجأة. دفعني الطبيب جانبا، كان كل شيء قد انتهى، فالرجل قدمات!

خرجت مرة أخرى إلى الهواء وأنا في حيرة.. إذا كنت أذكر «كاروزا» بشكل جيد فمعناها باص.. ماذا وراء هذه الكلمات القليلة؟ الرجل صيني وليس إيطاليا فلماذا يتكلم الإيطالية؟ فإن يكن هذا خادم إنجليز فلا بد أن يعرف الإنكليزية.. الأمر عجيب، يا ليت بواروعندي لكي يحل هذه المشكلة!

ودخلت بعد أن فتحت الباب وصعدت ببطء إلى غرفتي، فوجدت على الطاولة رسالة، فتحتهافتحجرت في مكاني في الحال، كان بلاغا من شركة المحامين، الرسالة تقول:

«سيدي العزيز

حسب وصية موكلنا السيد هيركيول بواورونرسل إليك هذه الرسالة المرفقة التي وصلتنا قبل اسبوع من وفاته وفيها أنه يجب علينا أن نرسلها إليك في تاريخ معين بعد وفاته..

المخلص.. »

قلبت الرسالة المرفقة مرة تلوالأخرى، حتما هي من بوارو، أنا أعرف كتابته، وبقلب مثقل ولهفة فتحتها...

«صديقي العزيز المحب

لن أكون موجوداً لدى استلامك هذه الرسالة لاتأسف عليّ ولكن اتبع أوامري:

عند استلامك هذه الرسالة عد إلى أمريكا الجنوبية فوراً، لا تكن عنيداً، إنني لا أناشدك أن تنجز هذه الرحلة من أجل العاطفة، بل إنهاضرورية، جزء من خطة بوارو، ولعلك فهمت يا صديقي الذكي..

.. فليسقط الأربعة الكبار!

هيركيول بوارو».

قرأت هذا البلاغ مراراً، شيءواحد كان واضحاً: لقد أعد الرجل المذهل لكل وجه حتى أن موته لم يضرب تسلسل خطته: أنا العضوالمنفذ وهوالعقل المدبر، أعدائي سوف يحسبون أني أطعت تحذيرهم فلاينشغلون بي، وأعود دون اشتباه وأدمرهم..

وأرسلت برقية وحجزت علىالسفينة «أنزونيا» في طريقي إلى بيونس آيرس، وبعد أن غادرت السفينة مرفأهاأحضر لي المضيف رسالة أخذها من رجل ضخم يلبس معطف فروغادر السفينة قبل أن ترفع ألواح المعابر الخشبية، فتحتها.. كان فيها كلمتان:

أنت حكيم.

رقم «٤»

وضحكت في نفسي

البحر كان هادئا، واستمتعت بعشاء حسن، ورأيت - مثل سائر زملائي المسافرين - أن ألعب مباراة أواثنتين في البريدج، ثم عدت ونمت كالقتيل، وهذا حالي كلما ركبت سفينة

وصحوت من إحساسي بأنني كنت أهتز مرارا، رأيت - وأنا مذهول - قبطانا يقف فوقي

- شكراً لله! صحوت أخيرا؟ هل تنام دائما في هذه الهيئة؟

- ماذا في الأمر؟ هل أصاب السفينة شيء؟

- ظننت أنك تعرف.. إنها أوامر قيادة البحرية، مدمرة تنتظرك لتأخذك معها
- ماذا؟ في وسط المحيط؟
- ليس هذا شأني، لقد أرسلوا إليّ السفينة شابا يحل محلك، وقد أقسمنا جميعا على السرية. هلا نهضت ولبست ثيابك؟

فعلت ما طلب مني وأنا عاجز عن كتمان عجبي

تم إنزال قارب وحملت على ظهر مدمرة، واستقبلوني بترحيب لكني لم أفهم شيئا، كانت أوامر القائد أن أنزل في بقعة ما علىالساحل البلجيكي، هناك تنتهي معرفته ومسئوليته.

كل شيء كان كالحلم، لكن ما استقر في قلبي أن هذا لا بد أن يكون جزءاً من خطة بوارو، ينبغي أن أسير كالاعمى واثقاً من صديقي الذي مات!

هبطت في نقطة ما، كانت هناك سيارة تنتظرني، وفي الحال عبرنا سهول فليميش المنبسطة، ونمت في تلك الليلة في فندق صغير فيبروكسيل، وواصلنا المسير في اليوم التالي، ودخلنا الغابات والجبال، وعرفت أننا على جبال الأردنيز.. وفجأة تذكرت أن لبواروأخا يعيش في منتجع، لكننا لم نذهب إليه

تركنا الطريق الرئيسي وعرجنا ناحية الهضاب في مكان ما منعزل حتىوصلنا إلى قرية صغيرة فيها دار منعزلة، وقفت السيارة أمام بابها الاخضر..

نزلت من السيارة، كان على مدخل الباب عجوز ينحني لي، قال بالفرنسية:
- كابتن هيستنجز ؟ أرجوك اتبعني

وسار أمامنا عابرا القاعة، وفتح في نهايتها باباً كبيراً على مصراعيه، ووقف جانبا لكي يسمح لي بالدخول..

طرفت عيناي قليلاً لأن الغرفة كانت من جهة الغرب وكانت شمس الأصيل تخترق الغرفة، ثم فتحت عيني ورأيت رجلاً يمد يده إلي.. كان ذلك الرجل.. آه! مستحيل.. كيف؟ لكن، نعم.. صحت: بوارو!

ولم أحاول التهرب من العناق الذي غمرني به
- نعم، نعم، ليس سهلاً قتل بوارو..

- ولكن، بوارو.. لماذا؟
- الحرب يا صديقي خدعة، كل شيء الآن جاهز لانقلابنا الكبير!
- لماذا لم تخبرني؟
- لا يا هيستنجز، لم أتمكن ؛ لأنك ما كان يمكن أن تمثل دور كفي جنازتي عندئذ بالاتقان الذي سارت عليه الأمور
- لكن الذي كنت سأكشفه..
- لقد رسمت خطة من أجلك، بعد الانفجار خطرت لي فكرة لامعة وساعدني على تنفيذها ريدجوي الطيب فيها: أنا ميت وأنت ستعود إلى أمريكا الجنوبية، لكن هذا يا صديقي ما لم تكن لتفعله، فكان علي في نهاية المسألة أن أدبر مسألة رسالة المحامي، لكن، على كل حال ها أنت ذا هنا، ذاك هوالشيء العظيم، والآن نحن نستلقي هنا بعيدين حتىتأتي خطة الانقلاب الكبير الأخير.. الإطاحة بالأربعة الكبار!



الفصل السابع عشر

في معتزلنا الهادئ في جبال الأردنيز كنا نراقب الأمور. كان يصلنا الكثير من الصحف، وفي كل يوم كان بوارو يتلقى ظرفاً ضخماً، واضح أنه يحتوي على تقرير من نوع ما.

لم يكن يريني هذه البيانات لكنني كنت أفهم من وجهه إذا كانت مرضية أولا، إنه لم يتزحزح عن عقيدته إن خطتنا هي التي سوف تنجح قال لي في أحد الأيام:

- لقد كنت في خوف دائم من أن موتك يقف على عتبة بابي، وهذا جعلني غضبان، لكنني الآن راض تماما، ولوأنهم عرفوا أن كابتن هيستنجز الذي نزل في الأرجنتين هورجل غيره فإنهم يظنون أنك تطوقهم بطريقة ذكية من عندك، ولن يجتهدوا في معرفة مكانك، هم مؤمنون بحقيقة واحدة.. أنني قد مت، سوف يستمرون في العمل وينضجون خططهم

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك يكون بعث هيركيول بوارو، سأعود وأظهر في اللحظة الأخيرة وأحقق النصر العظيم!

لقد عرفت أن غرور بوارو، وهودرع من فولاذ، يصمد في كل الهجمات وأن حماسته لا تفتر

- أنت ترى يا هيستنجز أنها كالحيلة الصغيرة التي تلعبها بالورق: تأخذ الشباب الأربعة، تقسمهم، وتقطع الورق وتخلطه، وهنا يعودون جميعا إلى بعض مرة أخرى. هذا هوهدفي: كنت أناضل مرة ضد واحد من الأربعة الكبار،

ومرة ضد واحد آخر،، لكن دعني أجمعهم الآن جميعا مثل الشباب الأربعة، ثم بعد ذلك أدمرهم بانقلاب واحد

- وكيف تنوي جمعهم معا؟

- بانتظار اللحظة الأشد خطورة، سنبقى بعيدين حتى يصبحوا جاهزين لأداء ضربتهم

- هذا يعني انتظاراً طويلاً!

- أنت دائما متعجل يا هيستنجز الطيب.. لا، لن يطول ذلك كثيرا، فالرجل الوحيد الذي كانوا يخافونه قد ابتعد عن طريقهم، شهرين أوثلاثة أشهر ليس أكثر ذكرني كلامه بإنجليز وميتته المأساة، ثم تذكرت أنني لم أخبر بواروعن الرجل الصيني الذي كان يحتضر في مستشفى سانت جيلز، أنصت إلى قصتي بانتباه شديد:

- خادم إنجليز؟ والكلمات التي نطقها كانت إيطالية؟ هذا عجيب!

- هذا هوسبب شكوكي أنها ربما تكون مكيدة من الأربعة الكبار

- أخطأت يا هيستنجز، أعمل خلاياك الرمادية.. إذا أراد عدوك خدعتك فإنهم حتما سيجعلون ذاك الصيني ينطق بالإنكليزية نطقا ركيكا، لقد كانت الرسالة محكمة، أعد علي ما سمعته مرة أخرى..

- قبل كل شيء ردد الكلمتين: «هاندلز لارجو» ثم قال: «كاروزا» معناها حافلة، أليس كذلك؟

- وماذا بعد؟

- ثم قال «كارا»: اسم رجل ما أواسم امرأة، وقال بعدها: «زيا »..

- إن «كارازيا» مهمة جدا يا هيستنجز

- لم أفهم..

- يا صديقي العزيز، الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا

- الجغرافيا؟

- أقول إن السيد توماس كوك ربما يكون هوالهدف مرة أخرى

ورفض بواروأن يقول أي كلمة أخرى. كانت حيلة تبعث على السخط،

لكنني لاحظت أنه صار فكاهياً مرحاً كأنما سجل نقطة

وسارت الأيام مملة، كان في الدارة أعداد كبيرة من الكتب لكني كنت أضيق أحيانا بالخمول في حياتنا، وعجبت من هدوء بوارو، حتى كانت نهاية شهر حزيران الحد الأقصى الذي ضربه بوارولهم حين وصلنا خبر عن الأربعة الكبار..

وصلت سيارة إلى البيت في وقت باكر من الصباح، وكان ذلك حدثاً غير عادي فنزلت مسرعاً لكي أشبع فضولي، وجدت بوارويكلم شاباً في مثل عمري ذا وجه مرح، وقدمني إليه:

- هذا هوكابتن هارفي يا هيستنجز، واحد من أعظم رجال استخباراتكم شهرة!

قال هارفي وهويضحك:

- أخشى أنني لست مشهوراً بتاتاً!

- لست مشهورا إلا بين هؤلاء الذين يعرفونك، معظم أصدقاء الكابتن هارفي يحسبونه رجلاً قد نذر نفسه للحيل

ضحكنا نحن الاثنين، وقال بوارو:

- هيا إلى العمل، إذن فأنت ترى أن الوقت قد حان؟

- حتما يا سيدي، لقد عزلت الصين أمس سياسيا، ماذا يجري؟ لا أحد يعلم شيئا، كتمان طويل وصمت!

- قد كشف لي شانج ين خططه.. ماذا عن الآخرين؟

- آبي ريلاند وصل إنكلترا قبل أسبوع وطار إلى أوروبا أمس

- ومدام أوليفير؟

- غادرت باريس الليلة الماضية

- إلى إيطاليا؟

- إلى إيطاليا يا سيدي، كلاهما ذهب - حسب معلوماتنا - إلى المنتجع الذي أشرت إليه.

لكن كيف عرفت أن..؟

- ذاك من عمل هيستنجز

نظر إلي هارفي بتقدير، وشعرت بعدم الارتياح.. قال بوارو:

- إذن فكل شيء يمشي بنظام - وصار وجهه شاحبا وجادا - لقد حان الوقت، هل تمت كل الإعدادات؟

- كل شيء أمرت بتفيذه قد تم، إن حكومات إيطاليا وفرنسا وإنجلترا تقف وراءك!

قال بواروباسترخاء:

- ذلك حلف جديد، إنني مسرور لأن ديسجارديو اقتنع أخيرا، جيد، إذن سوف نبدأ، أو- على الأصح - سوف أبدأ. أنت يا هيستنجز تبقى هنا، نعم، أرجوك حقا يا صديقي إنني لجاد

صدقته، لكني لم أرض أن أبقى هناك!

كان جدالا قصيرا وحاسما ثم كنا في القطار إلى باريس:

- إن لك دورا يا هيستنجز ؛ قد أفشل من دونك، لكني شعرت أن من واجبي أن ألح عليك بالبقاءء

- إذن ففي الأمر خطر؟

- حيث يكون الأربعة الكبار يا صديقي يكون الخطر

وصلنا باريس، وركبنا سيارة إلى جير دي ليست، ثم أعلن بواروعن وجهته، كنا متجهين إلى بولزانوا الإيطالية

وحين خرج هارفي من مقصورتنا سألت بوارولماذا قال إن كشف موعد اللقاء كان من عملي فقال:

- لأن إنجليز استطاع أن يعلم شيئاً ويرسله إلينا مع خادمه، فكيف عرف ما عرف؟ إننا متجهون يا صديقي إلى «كاريرسي» الاسم الإيطالي الجديد للاوجودي كاريزا، هل فهمت الآن من أين جاءت كلمة «كارازيا» و«لارجو»؟ أما كلمة» هاندلز» فمن خيالك

- كاريرسي؟ لم أسمع بها من قبل

- ألم أقل لك إن الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا؟ هي منتجع معروف، منتجع صيفي جميل جدا على ارتفاع أربعة آلاف قدم في دومولیت

- هناك يكون لقاء الأربعة الكبار؟

- ذاك مقر قيادتهم، هناك يعتزلون العالم ويصدرون أوامرهم، لقد تحققت من هذا الأمر، هناك عدد من المنشآت الصخرية يجري تنفيذها، ولعل الشركة التي تنفذها شركة إيطالية صغيرة يسيطر عليها آبي ريلاند. أقسم أن بيتا تحت الأرض قد تم حفره في قلب الجبل، بيت مخبوء يصعب الوصول إليه! من هناك يصدرون أوامرهم بجهاز لاسلكي لأتباعهم الذين ينتشرون بالآلاف في كل بلد، ومن ذاك الوكر سيخرج حكام العالم المستبدون الجدد.. أعني، كانوا سيخرجون لولم يكن هيركيول بواروموجوداً!

- حقا تقول يا بوارو؟ وماذا عن الجيوش وآلات الحضارة؟

- إن الخطر في تجارب مدام أوليفير، لقد نجحت في تحرير الطاق الذرية وتسخرها لخدمة أغراضها، كانت تجاربها بالنتروجين مشهورة جدا، وقد جربت أيضا تركيز الطاقة اللاسلكية لتركيز إشارة لاسلكية ذات ذبذبة عالية على بقعة ما، وحققت تقدما أبعد بكثير مما زعمته! ولا تنس ثروة ريلاند وعقل لي شانج ين: أعظم عقل إجرامي في التاريخ!

كلماته جعلتني أفكر، أحيانا يبالغ بواروفي لغته، لكني عرفت لأول مرة أي صراع يائس كنا فيه!

وفي الحال عاد هارفي وانضم إلينا وواصلنا الرحلة. وصلنا إلى ساحة بولزانو ظهرا، ثم ركبنا سيارة من السيارات الزرقاء الموجودة في ساحة البلدة. ورغم حر النهار كان بواروملفعا بمعطف كبير ووشاح حتى عينيه وشحمتي أذنيه، ربما من الحذر أوهوخوف زائد من البرد

وتمت الرحلة في ساعتين. كانت رائعة، اخترقنا المنحدرات الصخرية الضخمة وكان الشلال قريباً منا، ثم دخلنا وادياً خصباً بضعة أميال ثم صعدنا إلى أعلى بطريق معوج، وفي أسفل الطريق حواف صخرية تظهر في آخرها غابات الصنوبر الكثيفة... ما أجمل ذاك المكان!

وأخيرا دخلنا منعطفاً خفياً والطريق تجري من بين غابات الصنوبر،

ووصلنا فندقاً ضخماً..

كانت غرفنا محجوزة وصعدنا إليها بأمر هارفي فوراً غرف تطل على القمم الصخرية والمنحدرات الطويلة من غابات الصنوبر، أومأ بواروبيده إليها وسأل هارفي همساً:

- هل هوهناك؟

- أجل، مكان يدعى «فلسن لابايرنث»، الصخور فيه مشّكلة بصورة رائعة، وفيه طريق تخترقها، المحجر عن يمين الطريق، ربما يكون المدخل في فلسن لا بايرينث

هز بواروراسه، قال لي:

- تعال يا هيستنجز نجلس على المصطبة ونستمتع بضوء الشمس

- وهل تظن ذلك أمراً حكيماً؟

هز كتفيه استهجانا الحق أن ضوء الشمس كان لطيفاً، وشربنا القهوة بالقشدة، ثم صعدنا إلى الطابق العلوي ووضعنا متعانا في الخزائن، وكان بواروساهما يفكر، هز رأسه مرتين وتنهد..

وأثار اهتمامي رجل نزل من قطارنا في بولزانوا واستقبل بسيارة خاصة، كان رجلاً ضئيل الحجم، وكان ملفعا بثيابه مثل بوارو، وكان يلبس - زيادة على المعطف والوشاح - نظارة داكنة، وكنت مؤمنا أن لدينا جاسوسا للأربعة الكبار لكن بوارولم يوافقني، ثم عندما أخرجت رأسي من شباك غرفة النوم لمحته يتمشى قريبا من الفندق

أصررت على بواروألا ينزل للعشاء، لكنه أبى، دخلنا غرفة الطعام متأخرين وأشير إلينا بالجلوس عند طاولة قريباً من الشباك

وبينما نحن جلوس شدتنا صيحة صوت تحطم صحن سقط، كان في الصحن فاصوليا خضراء أمام رجل عند الطاولة القريبة منا. وجاء مدير الصالة يعتذر، وعندما كان النادل الذي أسقط الصحن يقدم لنا الحساء كلمه بواروقائلا:

- هذا حادث سيء، لكنها لم تكن غلتطك.

- هل رأى السيد ذلك؟ لم تكن غلطتي، الرجل وثب من كرسيه..

رأيت عين بواروتشع بالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيدا، وعندما غادر النادل همس في أذني:

- هل ترى يا هيستنجز ؟ هيركيول بواروتأثيره حيا وميتا!

- هل تظن..؟

لم أستطع أن أكمل، أحسست بيد بواروعلى ركبتي بينما كان يهمس مندهشا:

- انظر يا هيستنجز انظر: عادته في الخبز.. رقم «٤»

حقا، صاحبنا الذي على الطاولة المجاورة وجهه شاحب، كان يفتت الخبز بطريقة آلية.. تمعنت فيه بحذر، وجهه حليق ومنتفخ وشاحب شحوبا مصطنعا، وتحت عينيه تجاعيد كبيرة، ومن أنفه خطوط عميقة حتى شفتيه، عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين، لم يكن يشبه أحدا ممن تشبه بهم رقم «٤» من قبل، ولولا عادته في الخبز لأقسمت أني لم أره من قبل قط.. همست:

- لقد عرفك، ما كان يجب أن تنزل..

- يا صديقي هيستنجز الرائع، إنما كنت ميتا ثلاثة أشهر من أجل هذا

- لكي ترهب رقم «٤»

- لكي أرهبه لحظة يلزمه العمل فيها بسرعة، وهولا يعرف أننا عرفناه، يظن أنه آمن في تنكره الجديد. كم أدعولفلوسي مونرولأنها حدثتنا عن عادته النافعة هذه!

- ماذا سيحدث الآن؟

- ماذا يمكن أن يحدث؟ لقد بعث الرجل الذي يخشاه من موته بمعجزة في اليوم الذي نضجت فيه خطط الأربعة الكبار، مدام أوليفير وأبي ريلاند أكلا غذاءهما هنا اليوم، وأظنهما ذهبا إلى كورتينا، ماذا نعرف عنهم؟ هذا سؤال رقم «٤» لنفسه.. إنه لا يجرؤ على المجازفة..

نهض الرجل عن الطاولة المجاورة وخرج، وقال بواروبهدوء:

- ذهب لإعداد خطة صغيرة، ألا نشرب قهوتنا في الحديقة؟ سوف أصعد لآخذ معطفا وخرجت إلى الحديقة وأنا مضطرب قليلاً ،كلام بوارولم يقنعني، فرأيت أن أظل على حذر كبير بعد خمس دقائق رجع بوارو، وكان متلفعا حتى أذنيه: تلك هي احتياطاته المعتادة ضد البرد. قعد جنبي ورشف قهوته بإعجاب، قال:

- في انجلترا تكون القهوة رديئة، أما أهل بقية أوروبا فيعرفون كم هومهم

إتقان تحضيرها!

ثم ظهر صاحبنا في الحديقة فجأة، وبغير تردد أقبل علينا وسحب كرسيا إلى طاولتنا:

- هل تسمحان أن أجلس معكما؟

- قال بوارو: طبعا تفضل

وشعرت بالربكة، صحيح أننا كنا في حديقة الفندق والناس حولنا لكنني لم أكن راضيا بل أوجست خطرا

في غضون ذلك تحدث رقم «٤» بطريقة طبيعية، توحي أنه ليس إلا سائحا بلا شك، لقد وصف النزهات ورحلات السيارة وذكر أنه اتخذ موقفا في مكان مجاور!

أخرج غليونا من جيبه وجعل يشعله، وأخرج بواروعلبة التبغ الصغيرة، وحين وضع لفافة بين شفتيه مال إليه الرجل الغريب مع عود ثقاب:

- دعني أشعلها لك

وبينما هوكذلك إذا انطفأت كل المصابيح، سمعت طقطقة زجاج وأحسست شيئا لاذعا تحت أنفي كاد يخنقني!



الفصل الثامن عشر

لم أفقد وعيي أكثر من دقيقة، صحوت لأجدني أحرك بقوة بين رجلين يمسكان بذراعي ويساعداني على النهوض، وكانت في فمي كمامة!

كان المكان حالك السواد لكني ظننت أننا لم نكن خارج الفندق، وكل ما استطعت أن أسمعه حولي هوصراخ وتساؤل الناس عما أصاب المصابيح

أنزلني خاطفي إلى سلم لولبي عبرنا ممراً في سرداب ثم خرجنا من باب إلى الهواء مرة أخرى ثم إلى باب زجاجي وراء الفندق، ثم التجأنا إلى أشجار الصنوبر، ولمحت رجلاً آخر معي فعرفت أن بواروأسير أيضا!

وبهذه الجرأة ربح رقم «٤» اليوم، أظنه استعمل مخدراً سريعاً لعله كلوريد الإيثيل: كسر زجاجة صغيرة تحت أنفينا، ثم غمرة فوضى دفع شركاؤه - ولعلهم الضيوف الجالسون حولنا - بالكمامتين في فمينا وأسرعوا بنا خارجين إلى مكان بعيد

لقد دفعنا بسرعة في الغابات، وكنا طيلة الوقت نصعد نحوأعلى الهضبة، ثم في النهاية خرجنا إلى مكان مكشوف عن جانب الجبل، ورأينا أمامنا تلاً غريباً من الصخور الرائعة والجلاميد. لا شك أن هذا المكان هوالفيلسن لابايرينث الذي ذكره هارفي في الحال كنا ندور في منعرج دخولاً وخروجاً من تجاويفه.. متاهة نحتتها شيطان شرير!

فجأة توقفنا فقد اعترضتنا صخرة ضخمة، وقف أحد الرجال وبدا كأنه

يدفع شيئا حين تدحرجت الصخرة الكبيرة وكشفت عن نفق صغير له فتحة تؤدي إلى جانب الجبل. أسرعنا ندخله، كان النفق ضيقا في البداية، لكنه لم يلبث أن اتسع حتى خرجنا إلى غرفة صخرية مضاءة بالكهرباء، ثم رفعت الكمامتان عن فمينا، وبإشارة من رقم «٤» الذي وقف مقابلنا ساخرا فتشوا جيوبنا وأخرجوا كل شيء في جيوبنا حتى مسدس بواروالصغير، وقذفوه على الطاولة، وأصابني ألم مفاجئ: لقد غلبنا، غلبونا وتفوقوا علينا!

قال رقم «٤» باستهزاء:

- مرحباً بكما في قيادة الأربعة الكبار يا سيد بوارو، ما أحسن لقاءك مرة ثانية، فهل كانت البعثة من الموت من أجل هذا؟

لم يجبه بوارو، ولم أجرؤ على النظر إليه فيما أكمل قائلاً:

- تعال من هذه الطريق لوسمحت.. إن حضورك سيكون مفاجأة لأصحابي

ثم أشار إلى باب ضيق في الحائط دخلنا منه فإذا نحن في غرفة أخرى في آخرها طاولة عندها أربعة كراسي، كان الرابع منها خاليا لكنه مكسوبرداء المندرين على الكرسي الثاني كان يجلس آبي ريلاند يدخن السيجار، مدام أوليفير كانت على الكرسي الثالث وتتكئ على ظهر الكرسي بعينها المتوجهة ووجهها الخاشع كالراهبة، جلس رقم «٤» على الكرسي الرابع.. لقد كنا في حضرة الأربعة الكبار!

لم أشعر من قبل بوجود لي شانج ين حتى رأيت كرسيه الخالي، إنه بعيد، في الصين، لكنه سيطر على هذه المنظمة الخبيثة وأدارها

مدام أوليفير صرخت صرخة باهتة حين رأتنا، ريلاند كان يضبط نفسه أكثر، ورفع حاجبيه الاشيبين وقال على مهل:

- السيد هيركيول بوارو! إنها مفاجأة، لقد أنجزت عملك بنجاح وخدعتنا، ظننا أنك مت ودفنت، لا علينا فقد انتهت اللعبة الآن..

كان في صوته رنة كأنها رنة فولاذ!

ولم تقل مدام أوليفير شيئا لكن كانت عيناها تشتعلان،، ما أسوأ ابتسامتها

الباردة! وقال بواروبهدوء:

- أيتها المرأة وأيها السيدان، أرجولكم أمسية طيبة

شيء مفاجئ، صوت لم أكن أتوقع سماعه جعلني أنظر فيه، بدا رابط الجأش، ولكن مع ذلك لمحت في وجهه شيئا مختلفا.. ثم تحركت الستارة من خلفنا ودخلت الكونتيسة فيرا روساكوف، وقال رقم «٤»:

- ها.. صاحبتنا الغالية الثقة، عندنا صديق قديم لك هنا يا سيدتي العزيزة...

صعقت الكونتيسة لمرآنا وصاحت:

- يا لله، هذا هوالرجل الصغير، إنه كالقط: له تسعة أرواح! رجل صغير، لماذا تتورط في هذا؟

- مدام، أنا مثل نابليون العظيم: أنتمي إلى الكتائب المنظمة..

وبينما كان يتكلم رأيت في عينيها ارتيابا مفاجئا، وفي اللحظة نفسها عرفت شيئا.. الرجل الذي كان إلى جواري لم يكن هيركيول بوارو!

لقد كان يشبهه كثيرا، رأسه بيضاوي كرأسه، يمشي باختيال مثله، وكان ممتلئ الجسم على نحوجميل، لكن الصوت كان مختلفاً والعينان سوداوين لا خضراوين، ثم الشارب؟ الشارب المشهور..

تقدمت الكونتيسة إلى الأمام وصوتها يرن بالدهشة:

- لقد خدعتم.. هذا الرجل ليس هيركيول بوارو!

صاح رقم «٤» صيحة شك، لكن الكونتيسة تقدمت من بواروونزعت شاربه بيدها، ثم كانت الحقيقة: لأن شفة هذا الرجل مخدوشة خدشا غير صورة الوجه تماما، همس رقم «٤»

- إنه ليس هيركيول بوارو، فمن يكون إذن؟

- وصرخت فجأة: أنا أعرف

ثم سكت جامدا خشية أن أكون قد أفسدت كل شيء، لكن صاحبي التفت إلي ليشجعني:

- قلها إن أردت، لقد نجحت الحيلة!

- هذا أشيلي بواروأخوبواروالتوأم
- قال ريلاند بحيرة: مستحيل!
- أشيلي بهدوء: لقد نجحت خطة بوارو نجاحاً رائعاً..
تقدم رقم «٤»، وكان صوته خشناً متوعدا:
- نجحت؟ هل تعرف أنك ستموت؟
- أشيلي بهدوء: أجل أعرف، أنت لم تفهم أن رجلاً باع حياته ليشتري النجاح، في الحرب رجال يضحون بأرواحهم من أجل بلادهم، وأنا أضحي بحياتي من أجل العالم
تذكرت حينئذ أنني كنت أرغب التضحية بحياتي على إلحاح بواروأن أبقى، شعرت بالرضا، سأله ريلاند بتهكم:
- وكيف تنفع تضحيتك للعالم؟
- لم تدركوا بعد جوهر خطة بوارو، أولا: كان مخبأكم معروفا منذ بضعة أشهر ؛ لقد كان كل الزوار وموظفو الفندق من رجال التحري، لقد ضرب حصار حول الجبل لكيلا تستطيعوا الهروب. إن بوارونفسه يدير العمليات من الخارج، ولقد لطخت حذائي باليانسون إلى الصخرة هذه الليلة قبل أن أنزل إلى الحديقة مكان أخي، الكلاب تتعقب الآثار، سوف يقودهم أثر اليانسون إلى الصخرة التي في فيلسن لابايرينث حيث المدخل، إذن فافعلوا ما تريدون... الشبكة حولكم مشدودة بإحكام ولن تستطيعوا الفرار!
ضحكت مدام أوليفير فجأة:
- إنك مخطئ، أمامنا طريق نهرب منها مثل الشمشون القديم: سندمر أعداءنا، ماذا تقولون يا أصحابي؟
كان ريلاند يحدق إلى أشيلي.. قال بصوت غليظ:
- لعله يكذب
- سيبزغ الفجر في ساعة وسترى حقيقة كلماتي، لا ريب أنهم قد تبعوا آثار أقدامي حتى باب فيلسن لابايرينث!

وبينما كان يتكلم سمعنا رجع صوت وصراخ رجل متقطع، قفز ريلاند من كرسيه وخرج، وقامت مدام أوليفير إلى نهاية الغرفة وفتحت بابا لم ألحظه من قبل، ولمحت في الداخل مختبراً مجهزاً تجهيزاً حسنا مثل مختبرها في باريس.. رقم «٤» قفز كذلك من مقعده وخرج وعاد يحمل مسدس بواروواعطاه إلى الكونتيسة وقال وهومتجهم:

- لا خطر من هروبهما، لكن الاحسن أن يكون معك هذا..

وخرج مرة أخرى، وجاءت الكونتيسة إلينا ونظرت في رفيقي قليلاً ثم ضحكت:

- ما أشد ذكاءك يا سيد بوارو!

- مدام، دعينا نتحدث في العمل، نحن الآن وحدنا لحسن الحظ، ماهوثمنك؟

- إنني لم أفهم، أي ثمن؟

- مدام، أنت تستطيعين أن تساعدينا على الهروب، أنت تعرفين الطريق السري الذي يؤدي إلى خارج هذا المخبأ، إنني أسألك: ما هوثمنك؟

- أكثر مما تدفعه أيها الرجل الصغير، إن كل الأموال الدنيا لن تشتريني!

- مدام، أنا لم أتكلم عن المال، أنا رجل ذكي وأعلم أن لكل إنسان ثمنا مقابل الحياة والحرية، أعرض عليك ما ترغبين

- إذن فأنت ساحر

- سميني بما شئت

فجأة تغيرت الكونتيسة وتكلمت بمرارة وعاطفة:

- هل تستطيع أن تنتقم من أعدائي؟ عل تستطيع أن تعيد لي الشباب والجمال والقلب السعيد؟ هل تستطيع أن تحيي الميت مرة أخرى؟ قد كان لي طفل فأرجعه إليّ واذهب حرا...

- أوافق يا مدام، طفلك سوف يعود إليك، هذا ضمان هيركيول بوارونفسه

- عزيزي بوارو، أخشى أنني قد أوقعتك في الفخ، إن وعدك هذا لطف كبير لكنك لن تنجح وسوف تكون هذه الصفقة من طرف واحد

- مدام، أقسم لك أنني سأعيد طفلك إليك!

- لقد سألتك من قبل يا بوارو: هل تستطيع أن تحيي الميت مرة أخرى؟
- إذن فإن الطفل..
- ميت؟ نعم..
- وتقدم إليها وأمسك معصمها:
- مدام أنا أقسم مرة أخرى..
حدقت إليه كأنما سحرها. قال:
- أنت لا تصدقينني.. سأثبت لك صدقي، أحضري محفظتي التي أخذوها مني.
خرجت من الغرفة وعادت تحمل الدفتر بيدها ومازالت تقبض على زناد المسدس، أحسست أن فرصة أشيلي في خداعها كانت ضعيفة، الكونتيسة فيرا روساكوف لم تكن حمقاء. قال:
- افتحيه يا مدام، والآن أخرجي الصورة وانظري..
وأخرجت صورة صغيرة وهي في عجب، وما إن نظرت إليها حتى صرخت وترنحت كأنها توشك أن تسقط، واندفعت ناحية رفيقي:
- أين؟ أين؟ سوف تخبرني.. أين؟
- تذكري الصفقة يا مدام!
- نعم، سوف أثق بك، هيا بسرعة قبل أن يعودوا
جرته وهي تمسك بيده، وبهدوء خرجا من الغرفة وتبعتهما، ومن الغرفة الخارجية قادتنا إلى النفق الذي دخلناه أول مرة، ثم دارت عن اليمين حيث تفرغ الممر لكنها قادتنا إلى الأمام بلا تردد أوشك وبسرعة، قال وهي تلهث:
- يا ليتنا نصل عاجلاً ونخرج إلى المنطقة المكشوفة قبل أن يقع الانفجار!
وما زلنا نركض، وعرفت أن النفق يؤدي مباشرة إلى داخل الجبل وأننا يجب أن نخرج أخيرا إلى الجانب الآخر منه لنقابل واديا مختلفاً..
تصبب العرق من وجهي ولكني واصلت العدو، ثم رأيت شعاع النهار من بعيد، كان يقترب أكثر فأكثر، رأيت شجيرات خضراء نامية شققنا طريقنا من بينها إلى بقعة مكشوفة ثانية مع ضوء الفجر الباهت الذي جعل كل شيء يبدووردیا كان كلام بواروفي حصار الجبل حقيقة، ما إن خرجنا حتى أمسك بنا ثلاثة رجال لكنهم أطلقوا مرة ثانية مع صرخة ذهول. صرخ رفيقي:

- أسرعا، أسرعا، لا وقت نضيعه..
لم يكن مكتوبا له أن ينهي كلامه: ارتجت الأرض واهتزت تحت أقدامنا وكان انفجارا مرعبا، وبدا الجبل كله يتفسخ ويتشقق، طرنا عاليا في الهواء.. وفقدت الوعي

وعندما رجعت إلى وعيي كنت على سرير غريب في غرفة غريبة: شخص ما كان عند الشباك، التفت إلي وخطا ووقف جنبي
لقد كان أشيلي بوارو.. أو.. لا.. إنه هو!
هذا الصوت الساخر المعروف قد أطفأ شكوكي..
- نعم يا صديقي، إنه هو. أخي أشيلي ذهب إلى البيت مرة أخرى، إلى أرض الأساطير، أشيلي كان أنا طيلة الوقت، لا تحسب أن رقم «٤» هومن يستطيع أن يتنكر دون غيره، المسحوق في العينين، والتضحية بالشاربين، وأثر جرح حقيقي من الضربة التي سببت لي ألما قبل شهرين، لكني لم أستطع أن أجازف ببديل متنكر تحت عين رقم «٤» التي تشبه عين النسر. ثم اللمسة الاخيرة هي يقينك أن لي أخا اسمه أشيلي بوارو، وما أغلى مساعدتك لي! إن نصف النجاح الذي حققناه في الانقلاب يرجع فضله إليك. إن عقدة المسألة كلها كانت أن أجعلهم يظنون أن هيركيول بواروما زال حرا طليقا يوجه التعليمات لكن كل شيء كان صادقا: اليانسون، الحصار.. الخ.
- فلماذا لم ترسل - في الواقع - بديلا عنك؟
- وأدعك تواجه الخطر فردا؟ ثم كان في نفسي أمل أن نهرب مع الكونتيسة
- كيف بالله عليك أقنعتها؟ لقد كانت قصة سخيفة لكي تجعلها تصدق كل ذلك عن طفل ميت

- الكونتيسة في ذهنها حدة كبيرة يا هيستنجز، لقد فوجئت أولا من شخصيتي المتنكرة لكنها عرفت الحقيقة بعد ذلك، حين قالت «ا أشد ذكاءك يا سيد بوارو» في أنها خمنت الحقيقة، لذلك كان الوقت مناسبا تماما لألعب ورقتي الرابحة

- كل ذلك هراء عن إعادة الطفل إلى الحياة؟
- تماما، لكن الطفل كان معي منذ البداية

- ماذا؟
- نعم، أنت تعرف شعاري: «كن مستعداً» حين وجدت الكونتيسة متورطة مع الأربعة الكبار عرفت كل ما أستطيع عنها وعن ماضيها فعلمت أنها كان لديها طفل قيل إنه قتل، ثم نجحت في اقتفاء أثر الولد ودفعت مالاً كثيراً حتى جاز لي أن أتبنى الطفل، كاد الطفل المسكين يموت لولا أبقيته عند أناس طيبين في مكان آمن وصورته في بيته الجديد، وهكذا حين آن الأوان كان انقلابي حاضرا
- ما أروعك يا بوارو، ما أروعك!
- لقد كنت مسرورا بأني فعلت ذلك ؛ لأنني كنت معجباً بالكونتيسة، وكنت ساسف لوأنها ماتت في الانفجار
- ماذا عن الأربعة الكبار؟
- لقد تم انتشال كل جثثهم الآن، لم نعرف جثة رقم «٤» تماما، فقد تمزق جسده إربا، كنت أتمنى ألا يحدث ذلك، ولكن انظر إلى هذه.

وأعطاني صحيفة فيها خبر انتحار لي شانج ين قائد الثورة الحديثة الفاشلة، قال:
- خصمي العظيم، كان قدري ألا ألقاه وكلانا حي، حين بلغه نبأ الكارثة هنا قتل نفسه. إنه عقل عظيم يا صديقي، عقل عظيم!كم وددت أن أرى وجه رقم «٤» لكني - ولومات - أتخيله
- ها نحن أولاء يا صديقي واجهنا الأربعة الكبار وهزمناهم، الآن ستعود إلى زوجتك الساحرة، وأنا سوف.. سوف أعتزل الناس!

إن أعظم قضية في حياتي قد انتهت، أي شيء آخر سيبدوتافها بعدها سوف أعتزل الناس وربما أزرع الكوسا وأتزوج وتطمئن نفسي

ضحك كثيرا ثم، ثم قال مرة أخرى:
- أتزوج وتطمئن نفسي.. من يدري؟

تمت